

اعلام العرب

١٠٩

إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي بَاشَا
شَيْخُ الشُّعْرَاءِ

نجيب توفيق



هذا الكتاب

يتضمن تاريخ الشاعر الوطني والقاضى النزيه إسماعيل صبرى ، أحد أقطاب المدرسة التقليدية للشعر العربى الحديث ، التى قامت بزعامة الشاعر محمود سامى البارودى . وقد غمرت الأحداث تاريخه وآثاره الأدبية فكان لزاما أن تظفر المكتبة العربية بسفر يحوى حياته وآثاره الأدبية والاجتماعية ، لتعريف الجيل الحاضر له .

وقد امتاز إسماعيل صبرى بأنه الشاعر الوطنى الذى آزر الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، ولم يحل منصبه القضائى الكبير - وكيل وزارة الحقانية أن يؤيده علانية ويدعو إليه ويشيد بذكره ، لازمه منذ ظهور بواعث الوطنية الأولى حتى غدا نجما ساطعا فى سماء الجهاد السياسى الوطنى .

وقد أثرى إسماعيل صبرى الشعر العربى الحديث بنقحاته الخالدة فى ميادين الوطنية والغزل والشعر الصوفى . كما أسهم بنشاطه فى الميادين الاجتماعية والأدبية والوطنية فى عصره .

اعلام العرب

١٠٩

إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي بَاشَا

شَيْخُ الشُّعْرَاءِ

حَيَاتُهُ وَأَثَرُهُ فِي الْأَدَبِ وَفِي عَصْرِهِ

١٨٥٤ - ١٩٢٣

بقلم

نجيب توفيق



الهيئة العربية للتعاون الثقافي

١٩٨٥

مقدمة

فى هذا الكتاب نرجع الى عهد مضى ، من أزخر العهود الأدبية فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى قبيل سنة ١٩١٩ ، ذلك العهد الذى كان يعج بكثير من الشعراء والأدباء وعلى رأسهم شاعرنا اسماعيل صبرى ، أحد فرسان الشعر الحديث الخمسة الذين اضطلعوا بارساء قواعده ، واقامة دعائمه وهم محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وخليل مطران وحافظ ابراهيم وسوف نعيش معه متأملين حياته المليئة بالمواقف المشرفة التى لم تشرف صاحبها فحسب بل شرفت الأمة العربية بأسرها .

والغرض من هذا الكتاب استكمال النقص بالمكتبة العربية التى لا تضم سفرا كاملا عن حياة هذا الشاعر الكبير ، وما آداه للشعر وللمجتمع العربى الذى عاصره حيث أن زملاءه الأربعة قد شعاع ذكرهم والمكتبة العربية حافلة بالعديد من الكتب عن حياة وآثار كل منهم ، فقد تناولها كثير من الأدباء والكتاب فى شتى أنحاء الوطن العربى وحتى الوطن المهجرى ، أما شخصية اسماعيل صبرى فكادت أن تغمرها الأحداث ، ولولا نبذ بسطة عنه ، تأتى عرضا فى

ما تنشره الكتب المدرسية عن بعض أشعاره لنسيناه نسيانا تاما ،
لذلك كان لزاما على المهتمين بقضايا الشعر الحديث أن يعرضوا على
الملا بحثا تفصيليا عنه ، لينال حقه من التعريف به وبآثاره .

ولم يكن اسماعيل صبرى محتفلا بجمع شعره ابان حياته ،
حتى لقد ضاع الكثير منه ولم تجمع أشعاره الا بعد مماته بأكثر من
عشر سنوات ، وربما نسبت بعض أشعاره الى غيره من الشعراء ،
كما لم يكن شاعرا متفردا للشعر كلفا به ، يعاني في سبيله المشاق
ويود ان يكون مبرزا ومتفوقا على غيره فيه ، (وقد يكون عمله في
سلك القضاء ، حيث قد وصل فيه الى أعلى المناصب سببا لذلك)
- بل كان الشعر عنده نوعا من أنواع الترف الأدبي يقضى فيه
أوقات فراغه لا سيما وقد كان من طبقة أرسطوقراطية لها تقاليدھا
الخاصة ونظرتها الخاصة لأمر الحياة ، ورغم ذلك فقد أدمن قراءة
شعر الأقدمين وكان حفيا ومقدرا لشعر المعاصرين . حتى لقد جعل
من قصره منتدى أدبيا وسوقا للشعر يعرض فيه الشعراء الناشئون
ما جادت به قرائحهم ، وأخصبت به مواهبهم ، وأثرى به معينهم ،
حتى لقد كان الشاعر منهم يرى في انشاد شعره في هذا الصالون
أمام العلية من القوم وعلى مسمع منهم ، جائزة وأى جائزة ، تساوى
ما بذل من جهد وعانى من نصب في صياغة شعره .

ولا عجب بعد ذلك ، اذا قرأنا في البحوث التي تناولت تلك
الحقبة بالدراسة أنه كان يلقب « بشيخ الشعراء » حيننا وامامهم
حيننا آخر ، ولم يكن ذلك لتفوقه في مضمار الشعر عنهم ولا بوصوله
شأوا في ميدان القريض دونهم ، ولكن باعتبار مركزه الأدبي ولقبه
الرفيع ومستواه الاجتماعي الممتاز وقد اعترف له الشعراء جميعا
بالصدارة ، لما أغدقه عليهم من تشجيع ، وأولاهم من تكريم ومد
لهم من أيادي كانت كفيلة أن تشحذ ملكاتهم وتبرز أغلى ما يكمن أن
تجود به قرائحهم ، ولذلك قلنا أن اسماعيل صبرى ولو أنه لم يكن

من أعظم الشعراء ، ولكن كان ذا أثر خطير في الشعر المعاصر بصفة عامة .

ولا يضير اسماعيل صبرى أن كان مقلدا في شعره وقصير النفس في قصائده ، ومقلدا أكثر منه مبتكرا فحسبه أنه كان شاعرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؟؟ أجاد في ميادين الوطنية والغزل والشعر الفلسفى وقصر فيما دون ذلك

ولن ينسى التاريخ القومى اسماعيل صبرى كشاعر من شعراء الوطنية ، وصاحب صولات مشرفة في مجال الانشاء القومى فيما سمح به مركزه القضائى الدقيق ، وصاحب دعوات مشرفة لنهضة بلاده ، وكان أخا أكبر ، وعنصرا متينا للزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، جاهر بحبه له واعتناقه مبادئه رغم منصبه الحكومى الخطير ، ولما مات الزعيم فى ريعان شبابه ، كان على رأس الهيئة الموكلة لانشاء أول تمثال يقيمه الشعب المصرى منذ آلاف السنين تخليدا لذكرى مجاهد مخلص من بنيه .

ويعد اسماعيل صبرى من الشعراء القلائل الذين كانت لهم مواقف فذة ، فى موكب التقدم الاجتماعى والوطنى فى البلاد ، وأحد الرجال الذين أسهموا فى دعم الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة (مسلمين ومسيحيين) وساندوا المصلح الاجتماعى قاسم أمين فى دعوته الجريئة لتحرير المرأة .

وقد أرسى بذلك أقوى دعائم التقدم والنهوض بالمجتمع المصرى الحديث .

نجيب توفيق

الباب الأول

حياة اسماعيل صبرى

- الشعر ، نشأته وتطوره
- بعض المذاهب القريبة فى فهم الشعر
- الشعر العربى فى العهد الحديث
- حالة الشعر بعد البارودى
- عصر اسماعيل صبرى
- الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر
- التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر
- تاريخ حياة الشاعر
- المراثى التى قيلت فى ذكراه
- فنه الشعرى

الشعر نشأته وتطوره

ينقسم الأدب الى شعر ونثر ، والشعر من أقدم ضروب الأدب جميعا ، وليس معنى هذا أن أول كلام نطق به الانسان كان شعرا ، بل معناه أن أقدم الآثار الأدبية التي خلفها الانسان هي الشعر وأما الأدب المنتور فهو أحدث من الشعر كثيرا .

فاذا تأملنا تاريخ الأدب في أمة من الأمم رأينا أن الشعر سابق لسائر الفنون الأدبية فعند اليونان كانت قصائد « هوميروس » تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فنى .

وفي الأدب العربي نرى الشعر قبل الاستلام يتشد في المجمع والمحافل ، وتتداوله الرواة وتتناقله الأفواه ، وله في الحياة الاجتماعية آثار واضحة قوية ، ثم نبحت عن النثر الجاهلي نفسه فلا نكاد نجد له أثرا ، فاذا أمعنا في البحث ، ألفينا نتفا من سجع الكهنة والحكماء يشك كثيرا في صحة نسبتها اليهم ، ثم هي - فوق ذلك - ليست بالأثر الأدبي الخطير .

ونضرب مثلا ثالثا بأدب حديث ، وليكن الأدب الانجليزي ، فاننا نرى أقدم الآثار الأدبية عند الانجليز القدماء ، القصائد التي تصف أعمال بيولف (Beowulf) وهي ترجع الى القرن السادس أو السابع الميلاد ، وعند الانجليز المحدثين (أى بعد

الفتح النورمندی) نرى أجل الآثار الأدبية قصائد الشاعر تشوسر (Chaucer) الذي عاش في القرن الرابع عشر وهي القصائد المسماة قصص كنتربري (Canterbury Tales) ولا تزال من الآثار الخالدة في الأدب الانجليزي .

ونحن نرى من هذه الأمثلة ، التي تمثل العصور التاريخية الثلاثة : القديم - المتوسط - الحديث - سبق الشعر للنثر - وقد يبدو هذا غريباً لأول وهله - ظاهرة واضحة كل الوضوح ، وأن الأمم ظلت زمناً طويلاً تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

ومن تمام هذه الظاهرة أننا نرى كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتاب النثر ، ففي صدر الاسلام مثلاً نجد الى جانب جرير والفرزدق والأخطل كثيراً من الشعراء المعاصرين لهم ، على حين لا نرى كتاباً كثيرين في ذلك العصر ، وكذلك اذا عدنا الشعراء في عصر شكسبير ألفيناهم يربون كثيراً على كتاب النثر ، فالى جانب شكسبير آدمند سبنسر مؤلف ملكة الجن وكريستوف مارلو مؤلف المسرحيات الشعرية وبن جونسون الشاعر الثائر وبومنت وفلتشر والى جانب هؤلاء عدد كبير من الغنائيين وأما كتاب النثر الفني فعدددهم قليل ، ولعل أشهرهم فرنسيس بيكون الذي كان جل كتابته (باللاتينية) .

ومن أقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على النثر ، أن الأدب المنشور يتطلب معرفة بالكتابة ، والكتابة اختراع متأخر في تاريخ كل أمة ، فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تضيع الكتابة .

وكذلك روى الرواة الشعر العربي القديم قبل أن تشيع الكتابة العربية ، ومنشئ الأدب المنشور لا بد له من تدوين ما يخطر له ،

ورواية الكلام المنشور شفاها ليست بالشىء المستحيل ولكنها أمر لا يمكن الاعتماد عليه . وفي آداب الأمم كثير من الآثار الشعرية التي وصلت اليها بالرواية وبعضها لا يعرف ناظمه ، ومعظم الشعر الجاهلي بل بعض الشعر في صدر الاسلام ظل يروى زمنا طويلا قبل أن يدون ، وأشعار اليونان في عهدهم الأول كانت أيضا تروى وتنشر ولا تكتب ، والقصائد الجرمانية المسماة (Nibelungen) التي تسرد أعمال بعض الأبطال الجرمانيين القدماء وصلت اليها بالرواية أيضا .

فان كان الشعر أول مظهر للأدب في كل أمة ، فلا بد لنا أن نعتبره الأساس الذي بنى عليه الأدب كله منظومه ومنشوره ، على مدى العصور ، ومن الأمم من تقدم شعرها وسما سموا عظيما ومع ذلك ظل نشرها ضعيفا قليل الخطر اذا قورن الى شعرها ، والأدب الفارسي من الأمثلة الواضحة في هذا بل في الأدب العربي نفسه نجد أن الشعراء عامة أجل خطرا من الكتاب ، ومن الجائز أيضا أن يوجد الشعر والنثر وكلاهما في حالة تقدم وقوة .

على أننا نجد أصل الأدب كله في تلك الأشعار ، التي كان يتغنى بها قديما في تمجيد الأبطال أو في الأعراب عن العواطف ، أو ترتيل صلاة أو دعاء ، من هذه النواة الصغيرة نمت دوحة الأدب الهائلة وطالت فروعها وأغصانها .

لماذا قيل الشعر : ؟

الشعر اذن قديم في حياة المجتمع البشرى ، وقد نطق به الانسان وهو في حالة الفطرة ولهذا نرى في الأشعار الأولى مسحة من السذاجة ، تختلف كثيرا عما نراه في العهود التالية ، حين تعقدت مظاهر الحياة وأخذ المنطق سبيله الى العقول .

لماذا - اذن - نطق الانسان بالشعر وهو لا يزال في عهد
الفطرة والحياة خالية من كل تعقيد ؟ لقد كان الانسان في ذلك
العهد - الذى نسميه الأدب الجاهلى يتحدث فى مختلف شئون
يكلمات منشورة معتادة ، لا تختلف كثيرا عما يتحدث به عامة الناس
الذين يعيشون عيشة أدنى الى الفطرة فى زمننا هذا . فلماذا اذن
خرج عن طوره المؤلف ونطق بعبارة لها صيغة وشكل غير مألوف ؟
السبب فى هذا يرجع الى أن الانسان حين نطق الشعر كان
متأثرا تأثرا خاصا بأمر من الأمور التى ليست من شئون الحياة
المألوفة ، والتى من شأنها أن تؤثر فى النفس أثرا قويا ممتازا عن
كل احساس أو تأثر آخر ولهذا عبر عنها بعبارة غير مألوفة أيضا
تظهر فيها قوة التأثير الذى بعثها .

ومن العبث أن نتساءل هل كان للناس فى عهدهم الأول غرض
خاص للنطق بالشعر ، فان وجود الغرض المرسوم يتناقض مع مظهر
الفطرة ، والحقيقة أن الناس نطقوا بالشعر فى أول الأمر دون أن
يتكلفوا الشعر تكلفا أو يحتفلوا له احتفالا أو يستعدوا للنطق به
وانما انبعث الكلام بالشعر حين تهيأت الظروف التى دعت اليه .

والظروف التى يجوز أن تكون قد استفزت الانسان فى عهد
الفطرة كثيرة وقد لا تكون فى جوهرها مختلفة كثيرا عن الظروف التى
ينظم فيها الشعراء فى عصرنا هذا .

وأقدم القصائد التى وصلت الينا - فى أدب كثير من الأمم -
قصائد تسرد قصص الأبطال وأعمالهم المجيدة . وهذا الضرب من
الموضوعات كان له شأن خطير فى ذلك العهد وليس من الضرورى أن
تكون هذه الموضوعات هى أول شئ نظم فيه الشعر . بل من الجائز
أن يسبقها أناشيد فى موضوعات شتى من حب أو شوق أو فخر
أو رثاء ، أو مظهر من مظاهر الطبيعة ، وأناشيد تعبر عن احساس

دينى ، ولكن قصص الأبطال المنظومة أسهل فى التداول والرواية ، وربما كان هذا من أهم الأسباب فى حفظها وعدم اندثارها الى أن جاء الوقت الذى دوت فيه وكتبت .

على كل حال تأثر الانسان لأمر ما تأثرا خاصا ، استفزه الى النطق بكلام خاص ، غير كلامه المؤلف ، ثم جعل ينشد هذا الكلام الخاص لغيره ليتأثر به أصحابه كما تأثر ، لأن من خلق الانسان أن يرغب فى أن يشاركه غيره فيما يحسه ويتأثر به وهذا ما يعبر عنه علماء النفس بالمشاركة الوجدانية .

وقد وجد الناس لهذا الكلام الخاص لذة وطربا يرفعه عن مستوى الكلام المعتاد ، فأخذوا يتناقلونه ويتداولونه .

وإذا أردنا ان نبحث الصفات التى ميزت هذا الكلام عن سواه، فاننا مضطرون لأن نلجأ الى ما بأيدينا اليوم من أشعار ، اذ ليس لدينا أشعار فى أية لغة من اللغات نستطيع ان نقول عنها ، بشيء من التأكيد - ان هذه أول أشعار قيلت فى هذا اللسان أو ذاك - فان الاشعار القديمة التى بقيت لنا من أدب أية أمة هى أشياء ناضجة ، وقد سبقها من غير شك عهد نمو وقطور ، لا نستطيع ان نقطع برأى فى الخطوات التى خطاها الشعر فيه حتى اتخذ صورته الكاملة الناضجة .

ومع جهلنا بأطوار الشعر الأول فى تاريخ آداب الأمم المعروفة ، نستطيع ان نفترض أن خصائص الشعر الأساسية كانت موجودة ولو الى حد ما ، حتى فى أقدم الاشعار ، وهذه الخصائص هى :

أولا : ان الأشعار كانت دائما تعبر عن احساسات قوية وتأثرات عميقة .

ثانيا : ان الألفاظ المستخدمة فى الشعر منتقاة .

ثالثا : ان الالفاظ مرتبة ترتيبا موسيقيا خاصا ، وهذا ما يعبر عنه بالوزن .

رابعا : ان الشعر العربي التزمت فيه قيود لفظية خاصة وهي القافية ولا ريب انها قديمة جدا .

علاقة الشعر بالغناء :

كان هنالك دائما ارتباطا شديدا بين الشعر والغناء ، ومن المشاهد ان الغناء شيء مألوف عند جميع الشعوب مهما بعدت المسافة وانقطعت الصلات بينهم ، ومهما كان نصيبهم من الحضارة أو البداوة ، وأيضا كانت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ولا يعرف على وجه الأرض شعب يجهل الغناء ، لهذا لا مفر لنا من أن نحكم بأن الغناء ظاهرة فطرية في الانسان ، شأنه كشأن سائر الاعمال التي يصدر فيها الانسان عن الغريزة والميول الفطرية ، لا فرق في هذا بين متقدم ومتأخر وقديم وحديث وتمددين ومتوحش .

ولئن كان الانسان قد لجأ الى الغناء عن غريزة وميل فطري فليس من الضروري ولا من المهم أن نتساءل عن الأسباب التي دفعته الى هذا العمل ، وانما نستطيع أن نقرر أن الظروف التي كانت تتطلب الغناء مشابهة جدا للظروف التي كانت تتطلب التطور بالشعر والصلة شديدة جدا بين الاثنين ، فالشعر يشتمل على موسيقى الالفاظ والغناء يشتمل على موسيقى الألحان ، ومن الجائز أن يتغنى الانسان بالكلام المنشور ولكنه لن يلبث حتى يبدو له أن الكلام الموزون أليق بالغناء وألصق ، لأن الجمع بين الشعر والغناء الى درجة عدم التفرق بينهما أمر ظاهر في أقوال الأدباء وكتاباتهم ، حتى في الأزمنة التي كان فيها الشعر ينشد لنفسه دون أن يتغنى به ، فالنبي يخاطب سيف الدولة ويقول له :

أجزنى إذا أنشئت شعرا فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فأننى أنا الطائر المحكى والآخر الصدى
وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر متشدا
فسار به من لا يسير مشهرا وغنى به من لا يغنى مفردا

فنحن نرى فى هذه القطعة كيف يمزج الشاعر بين القاء الشعر
والتغنى به وبين أنه شاعر وأنه طائر غرد .

وليس من شك فى أن كثيرا من الشعراء القدماء كانوا يتغنون
بشعرهم وهو ميروس الذى تنسب اليه الإلياذة لم يكن يلقى أشعاره
القاء بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال ، أى أنه كان
شاعرا بالمعنى العصرى المعروف .

ونحن لا نستطيع أن نقطع كيف كان العرب فى الزمن الجاهلى
يلقون أشعارهم وهل كانوا يلقونها القاء معتادا ، أو فى صورة غناء .
ولكن الأرجح أن الأشعار كانت تلقى على كلا الوجهين حسب
مقتضيات الظروف ، واستعداد الشاعر أو الراوى ومن المشهور
أن شعر الأعشى كان يتغنى به .

تطور الشعر :

بعد أن انتقل الناس من عهد الفطرة الى عهد الحضارة ،
وأخذت مظاهر الحياة تتعدد وتتعدد ، لم يكن بد من أن يظهر أثر
هذا فى الشعر ، وأن ينتقل هو أيضا من طور الى طور ، ونحن
نلاحظ فى تطور الشعر الاتجاهات الآتية :

أولا : بعد أن أخذ الناس يتقدمون فى طرق الحضارة ،
أصبح الشعر فنا مقصودا متعمدا وأصبح الذين يمارسونه طائفة من
الفنانين ، ممتازين عن سواهم من الناس ، وبالرغم من أنهم كانوا

ينطقون بالشعر عن هيئة فطرية ، وسليقة مفروسة في نفوسهم ،
فانهم مع هذا كانوا يتعمدون الاتقان والابتكار ، ويتنافسون في فنهم
هذا ، **ومن الغريب أننا نسمع حتى في العصر الجاهلي شاعرا مثل
عنتره يقول :**

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

كأنما الشعراء - حتى في زمن الجاهلية - قد ألموا بكثير من
نواحي القريض وقلبوا الكلام على وجوهه بقدر ما اتسع له أفقهم
وبيئتهم .

ثانيا : بعد أن أصبح الشعر مستقلا ، له سننه وطرائقه ، وله
قيوده التي لا ينبغي للشاعر مهما اخترع وابتدع أن ينقضها ويخرج
عليها ، نرى أن الشعر لم يكد يحس لنفسه وجودا مستقلا حتى
انفصل عن الغناء وأصبح له مكانه الخاص . فان التغنى بالأشعار
كان معناه الجمع بين فنين مختلفين ، الأول فن تأليف الكلام والثاني
فن تلحين الألحان ، ولئن جاز في العهد الأولى الجمع بين
الصناعتين ، كما كان الرجل يجمع بين الحرفتين فان طبيعة التقدم
قضت باقتسام العمل ، وانفراد بعض الناس بالتأليف الشعري
والآخر بالتلحين ، وأصبح الشعراء طائفة من الناس ورجال التأليف
الموسيقى طائفة أخرى .

ثالثا : وبعد أن انفصل الشعر تماما عن الغناء ، أخذ الشعراء
يعنون بتأليف اشعارهم عناية خاصة ، واهتموا بأن يكون للشعر
موسيقاه الخاصة ، وهي موسيقى قائمة على حسن وقع الألفاظ في
السمع ، من غير استعانة بآلات وألحان . وفي العهد الأول كان
الكلام الركيك قد يحسنه التلحين البارع ، فأما وقد حرم هذا
الثوب الجميل واضطر الى الانفراد بنفسه ، فلم يكن بد من أن
يسمو ويجميل بنفسه لكي يعوض ما فاتته من جمال الألحان .

رابعاً : وكذلك أخذ الشعراء يسلكون بأشعارهم طرقاً جديدة ،
فالى جانب الشعر الذى يصلح للغناء - وهو ما يطلق عليه اليوم
الشعر الغنائى - وجدت هناك أنواع جديدة تتناول موضوعات
خاصة من حكمة ، وهزل ووصف وفلسفة ، وشعر مسرحى وغير هذا
من الأنواع التى يمكن أن ينعم بها الانسان لذاتها ، من غير الاستعانة
بألحان ونغمات موسيقية .

والخلاصة أن الشعر من حيث هو فن مستقل أخذ يتطور فى
اتجاهين مختلفين : الأول فى بنيته من حيث الأوزان والقوافى ،
والمحسنات اللفظية والصيغ الشعرية الخاصة والاتجاه الثانى هو
فى الموضوعات وتنويعها بحيث تتناول كل ما اتسع له الافق
الشعرى الذى يوشك ألا تكون له حدود .

بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر

أراد الناقد الفرنسى Thierry Moulinier تيرى مولينيه أن يصور يوما الشعر الفرنسى كله فى الصورة التى يجب أن يظل فى اطارها ، فجمع أشتاتا من الأبيات والمقطوعات والقصائد لكثير من الشعراء الفرنسيين منذ أقدم العصور حتى الآن ، وأخرج كتابا يضم دراساته فيها سماه « المدخل الى الشعر الفرنسى »

Introduction à la poésie Française

ويرى مولينيه فى هذا الكتاب أن الشعر يأبى أن يدخل فى حدود التعريف لأنه يأبى الا أن يكون جوهرًا ، ولأن هذا الجوهر يستمد وجوده من صميم الأشياء التى لا توصف ، وكل توضيح للشعر يقتل الشعر ، يقتله بمنطق العقل ، ويقتله بالحس بين جدران الألفاظ ويقتله بالنأى عن مداه الحيوى ، ولعل الشعر من بين جميع ما يمد العقل اليه يسه باللمس والدرس - أكثر الأعراض نفورا منه وبعدا عنه - وهو يفلت من بين أنامل العقل كما تفلت الحياة من بين أنامل التحليل الكيماوى .

ومع أن الشعر يتمثل لك سويا قويا فى أكبر الآثار العقلية ، فإنه ليبدو روحها أو مصدرها تارة ، ونداها الرطب تارة أخرى ،

حقيقة سيالة متمردة بأكثر مما تكون الأخيلة والأشباح من السيولة
والتمرد .

وهي ترفض اللغة التي تريد أن تقنصها رفضا قد يصل إلى
درجة التعالي والتجاوز والاستشراف ولعل اللغة - إذ تحاول القبض
على الشعر إنما تطفىء نوره ، وتخنق روحه ، وتجمد رعشته وإذا
بدأ أن الشعر ليس إلا مظهرا من مظاهر الثراء في اللغة أو قوة من
قواها الخاصة ، فإن اللغة لا تستجيب له إلا بالتفوق على طبيعتها
والاستزادة من الحياة النابضة .

وملاحظة مولينيه هذه صحيحة جدا ، فانظر إلى لفظ من الألفاظ
يحدد معناه المعجم أو تعبت به الألسن ، تجده لجموده لا يسفر في
ذاته عن شيء كثير ، لا سيما ما يتصل بالمعاني النفسية كما تعتلج
طى الصدور ، وما تقوى هذه اللفظة الجامدة المبتسرة إلا إذا انتظمت
مع غيرها من الألفاظ وفق جرس موسيقى ، أو وقعت في مكانها من
الجملة ، أو ارتسمت في بعض الصور والظلال فكأنما هي تسمو على
نفسها حين تصير كلاما منظوما

فهذه لفظة « هواء » تسمعا هكذا على انفراد ، فتتصور ضربا
من الريح على نحو خاص ، كما تتصور شيئا جامدا ، لا تفيض فيه
الحياة ، فإذا قرأت قول شوقي :

فاتقوا الله في قلوب العذارى فالعذارى قلوبهن هواء

تمثلت موكبا من العواطف الناعمة الخفيفة البريئة ، تزخر
كلها وتزدحم في شفافية رائعة محببة ، فتلك هي الكلمة التي
تفوقت بالشعر على طبيعتها ، واستزادت من الحياة كما قال مولينيه .

ويقول مولينيه أيضا :

« أن الباحث في الشعر سوف يبتعد عن غايته التي ينشدها كلما حاول أن يحد الشعر في تعريف شامل واسع ، فاذا مهمته تغدو عبثا لا خير فيه ، وجهدا لا فائدة منه ، واذا القصد من الدراسة يستطيل ويتمدد ، ليضيع آخر الأمر في خضم التوسع والشمول .

ولو أنك حاولت أن تظفر بأعم الخصائص للشعر العربي لوجدت نفسك أمام عمل فيه النصب والمشقة مع ضالة الجدوى ، وتبقى بعد ذلك المشكلة قائمة ، وهي أن تعرف كيف يتمثل الشعر قائما واضحا في لفظة لشوقي أو أبيات لاسماعيل صبرى ، أو قصيدة لحافظ . والظاهر أن المشكلة ليست على قرب من مواقع الحل أو ليست على استعداد لأن تحل . فمادام الشعر قوة « أخرى » من قوى الكلام يتسامى بطبيعته على التوضيح والتحليل ، فليس من الممكن ولا من المستطاع أن يسمح لنا باختزاله وتركيزه في تعابير من الكلام الواضح والتعريف الجامع ، والعجيب من أمر الصلة التي تربط الشعر بالشاعر ، أنها تلائم أنقى وأخلد أشكال اللغة التي انتظمت في سياق القصيدة ، فظفرت بالقوة التي تزيد من قوتها ، وتلك مطابقة في الوجود بين النشاط الداخلي الحصب والبيان المنعقد الى درجة يبقى معها منعقدا بالعدد والأوزان ، حتى في المواضع التي تنعدم فيها معانى الألفاظ ، ومن أجل هذا رأى بعض النقاد أن الشاعر لا يبدع في حقيقة الأمر الا البيان ، وذلك لأنه يخترق حدود اللغة المرسومة ، ثم يضطرها بوسائل خاصة الى أن تحمل في ذاتها هذا الجانب الساحر الذي لا يوصف من الحياة .

وإذا كان البيان هو موضع الإبداع عند الشاعر ، فأنت تستطيع أن تطلع على أقوى صورة من هذا البيان في قصيدة « دمة

وابتسامة « لشوقى ، وقد نظمها فى عودة أم المحسنين الى مصر ،
وتعزيتها فى حفيدها الأمير عبد القادر ومطلع القصيدة :

ارفعى الستر وحيى بالجيبين وأرينا فلق الصبح المبين

ومنها هذا البيت الخالد الذى يلخص الحياة والناس فى أدق
ما لهما من الخصائص وأعنى الألم :

انما الدنيا شجون تلتقى وحزين يتأسى بعزين

ونستطيع أيضا أن نطلع على صورة أخرى قوية من البيان فى
رثاء حافظ ابراهيم للزعيم مصطفى كامل :

انى أرى - وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم

ارى جلالا ، ارى نورا ، ارى ملكا
أرى محيا يحيينا ويبتسم

الله أكبر هذا الوجه أعرفه
هذا فتى النيل ، هذا المفرد العلم

غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

فهنا الابداع واضح فى وصف (الجانب الساحر الذى
لا يوصف) من حياة الزعيم مصطفى كامل ، وهو العظمة وأثر
هذه العظمة فى نفوس الجماهير - ونفس حافظ منها فى الصميم .
وهنا أيضا تأتلف الألفاظ الفخمة التى تمتلىء بها الفم ، وتنفرج
لها الشفافة فىكون من ائتلافها المنغوم هذا البيان الرائع الجزل الذى
عرف به حافظ ، والذى يصور شخص الزعيم واعجاب الشاعر به

وحزنه الشديد لوفاة . وعندى أن الأبيات من أوابد الشعر العربى
فى العصر الحديث .

ولا يعنى مولينيه بالبيان هنا التسلسل على نغم موقع من
الجرس اللفظى فحسب ، بل ضربا من سحر الكلام ، أو مفتاحا من
ذهب يفتح لكل انسان مغاليق عالمه الذاتى الممتنع ، كأنما البيان
سبيل الى أن يتدسس المرء الى أخفى أغاز شخصيته ، وقد قال
بهذا بول فاليرى كما قال بهذا جان دى ولاكروا .

ثم ها هو ذا مولينيه يصل الى تعريف للشعر جميل ، هو أنه :
وجه من أخصب وجوه البيان وليلة ذات ألف ميلاد وألف صباح ،
ومظهر رفيع لا ضريع له . فالشعر هو الصفاء المقعم بثتى
امكانيات التكيف ، أو هو العدسة البلورية التى يجد فيها كل
انسان على نحو ما وجها كان يجهله من نفسه ، أو قل هو الماس
الذى يضىء به الواحد منا أنجمه الحايية وكذلك يولد الشعر فى
النفوس بحيوات مختلفة أو تولد نفوس الناس فيه بحيوات
مختلفة .

وإذا كان تعريف الشعر على هذا النحو صحيحا وجميلا ،
فان مولينيه ليحذر قراءه بعد ذلك من أن يدخل بهم هذا التعريف
فى القضية « الكلاسيكية » المعروفة بقضية (المبنى والمعنى) فما
تعرف عملية الابداع الشعرى الا قضية واحدة ، ليست هى قضية
المبنى والمعنى ، ولا هى قضية التزاوج بين المبنى والمعنى وانما هى
قضية اللغة .

فالأثر الفنى اذا تولد فى ذهن خالقه ، فانما يتولد أول الأمر
كمبنى فحسب ، الا أن هذا المبنى من الأصالة والعفوية والابتدائية

بحيث يجب أن يتناوله صاحبه بالعمل والتنقيح والاصلاح ، ليتركه بعد ذلك متمكنا من نفسه ، فليست بداية الفنان منبثقة من مادة من هذه المواد التي لا تنتهى ، والتي يستمد منها صورته وأخيلته انما بدايته من مخطط مؤقت ، لا ينسحب عليه الزمان الا ريثما يستحيل الى حياة تامة الأجزاء ، مكتملة التكوين .

ويسوقنا هذا الكلام الى أن لا نرى فى الجهد المنصب على الأسلوب وسيلة لاشادة الأثر الفنى فوق مادته ، بل وسيلة لوضع ما يجب أن يوضع داخل الأثر الفنى . وينشأ عن هذه أن الشكل الذى لا خطر له لا جمال فيه ، وأن الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى وذلك لأن عملية الأسلوب ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى . وإذا كان ذلك صحيحا ، فمن التخليط الواضح هذه الأسطورة التى يتحلونها الرومانطيقيون وهى عفوية الوحي . . . فليس من عفوى فى فن الشعر غير الكلام !!

ولقد كان اسماعيل صبرى معنيا بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، ومعنى باللفظة باعتبارها أداة تصوير ، وباللغة باعتبارها مظهرا للحس ، وبالرسميقى باعتبارها جوا للفكرة فالشكل عند الشاعر سبيل الى الجمال الفنى ، وليس غاية فى ذاته ، ولا هو منتهى ما يصل اليه ، فهو يؤمن بقول مولينيه : **أن الشكل الذى لا خطر له ، لا جمال فيه وان الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى .**

من أجل ذلك كان اسماعيل صبرى يعيد النظر فى شعره ويبدل لفظه بأخرى ويقدم ويؤخر ، لأن عملية الأسلوب عنده - كما يقول مولينيه - ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى . **ومن أجل ذلك نسمع اسماعيل صبرى يقول :**

شعر الفتى عرضه الثاني فأحربه

ألا يشوهه بالأقذار والوضر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحط

ثاني النفيسين من لغو ومن هلر

وقد التزم الشاعر بهذه النصيحة وطبقها على نفسه في شعره الى أبعد مدى ، فهو يدير الألفاظ ويقلبها ، ويخاف العثار ، ويرهب النقد ، ويتحرج أن يأتي بغير ما هو الأولى وأن يصدر عنه ما ليس بالأعلى ، دعاه ذلك الى أن يتريث في شعره ويتمهل في صوغه والغوص على المعاني ، كالغوص على اللآلئ ، ثم لا يقنع بأية لأولوة ، بل لا يرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها وضعها في الموضوع اللائق لها حتى يعجب بها الذوق الراقى .

لقد تتسامى الألفاظ بين يدي الشاعر من مهمتها المألوفة في الحياة العملية الى مهمة عليا مصدرها تسلسل المعاني فيها على ائتلاف وتزاوج ، كأنما الشاعر اذ يرسل الألفاظ انما يرسلها رقى وتعاويد تأسر الحياة بقواها الساحرة وطاقت نورها المتجددة ، فما كان لشاعر أن يتناول الألفاظ الا وفق ما تهدف له معانيها وقواها أيضا ، حتى تكون للغة الشعر على الحياة سيطرة كسيطرة المنطق والسحر معا . واذا كان الشعر مضطرا الى أن يؤدي هذه الرسالة المزدوجة رسالة المنطق ورسالة السحر ، فمن الواضح أنه اذا تخلى عنها فقد تخلى عن كيانه كله من حيث هو شعر ، فانما طبيعة الشعر الفارقة قائمة على ذلك الازدواج في الرسالة ، فما يكون الشاعر شاعرا حين يضحى بالقوة في الكلمة الشعرية من

أجل المعنى اللغوي الدارج ، أو يضحى بهذا المعنى من أجل تلك القوة السحرية ، وأنت لا تجد شعرا الا حيث تجد لحم الحياة مصورا في مادة الصنيع الفني والا حيث تجد الكلمة مالكة ناصية الحياة من وراء القدرة المحدودة لعناها . فلو أن شاعرا شاء أن لا يجول الا في دنيا المنطق أو في دنيا السحر ، لما كان شاعرا البتة ، وانما كان نظام بحور وأوزان على طريقة تلاميذ المدارس أو كان صاحب تراث وطلاسم على طريقة المشعوذين ليس الخلق الشعري حلما من الأحلام ، ولكنه يقظة قبل كل شيء ويقظة عميقة الى حد بعيد ، والرسالة التي يضطلع بها الشعر هي تمثيل الجانب المستكن في الشيء المسمى ، أو تصوير الذي لا يصور من الأشياء يجرى الى ذلك بوسائله من الألفاظ والعبارات وتبدو الأعمال الشعرية من خلال هذه الرسالة كأحسن أسلوب لتوضيح كل ما من طبعه في هذا الوجود أن يأبى الدخول في حيز اللغة ، فهي تحمل كل كلمة من كلمات اللغة المستعملة على أن تقول ما لم تقل ، وعلى أن تبلغ مداها أقصى الحدود .

فكأنما الأعمال الشعرية توسع من إطار شعورنا بالوجود ، ان لم نقل انها تعيننا على السيطرة عليه سيطرة أسرة محكمة .

فالشعر يحرر اللغة من هذه الحواجز العالية التي يختنق بها الكلام الدارج لينطلق في فسحة الكون ، على نقلة بين صدى وصدى ، حتى يلامس آخر جوانب الدنيا . وحرى بنا - وهذا شأن الشعر - أن لا نسميه (فن الكلام) بل (فن السكوت) الذي يسمو باللغة الى موضع الجلال والجمال والمعرفة ؟ هنا يقول مولينيه : عد الى نفسك اذا خلوت وحدك ، ترى خلجات واضحة وخلجات معتمة ، ثم انظر الى الحياة من حولك تعسرف شيئا وتجهل أشياء أنوارا تحف بها ظلمات ، ونهارا يمحوه

ليل . أنت تهتدى حيناً ، وتضل أحياناً وما تزال تتأرجح بين الهدى والضلال ، حتى ترى آخر الأمر معرفة تسلك بك سبيل الفهم لنفسك وحياتك خيراً من هذا الضرب من المعرفة : الشعر .

واضحك اذن من القائلين بأن مادة الشعر سوف تنفذ في يوم من الأيام ان الشعر مستراد لأنفسنا نستمد منه متعة تتجدد ما بقيت الحياة عذراء ، قل أن الشعر أسمى ضروب المعرفة ، أو قل أن الشعر يعلمنا ما نجهل من الحياة . . لقد آن الأوان لانقاذ الشعر من جملة المضحكات التي دسه فيها الخيال العامي وبعض الشعراء فليس بين الشعر ، وبين الجنون ، أو أضغاث الاحلام ، صلة ولا قرابة .

ولو قدر لنا أن نعترف بخطورة المعرفة الشعرية ، كما نعترف بخطورة المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية ، لتبوأ الشعر مكانه الأول ، وهو الاضطلاع بتزويدنا من الحياة بأوفى مادة وأجمل صورة .

الشعر العربي في العصر الحديث

يدين الشعر الحديث للبارودي ، بأنه النموذج الرائع الذي نسج الشعراء على منواله من بعده ، وساروا على نهجه في أسلوبه وأغراضه . وذلك لأنه أتى بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم ، في حقبة غلب فيها على الشعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال .

ثم أنه مثل عصره أتم تمثيل ، وكان صدى لحوادث بيئته ، فكان قدوة لمن جاء على أثره في التجديد .

أضف الى ذلك ، أنه علمهم كيف يتجهون الى الأدب العربي في أزهى عصوره يعبون من نبعه الثر ، ويفتخرون من ذخائره مع احتفاظهم باستقلالهم وشخصيتهم فيما ينظمون من شعر ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبتعدون عن الحلي المتكلفة وبذلك سار الشعر من بعده الى الامام ولم يرجع أبدا الى عصور الضعف والركاكة .

وقد عرف البارودي كيف يعيد للشعر العربي الحديث ديباجته القوية ، وينهض به نهضة فارعة ، تخطت عدة قرون الى الخلف حتى رجعت الى عهود القوة والنضارة متجنبية الزخرف

والطلاء الغث والركاكة ، والتقليد لعصور الضعف والعجمة ، ثم نهضت البلاد نهضات قوية في التعليم وأحياء التراث العربي القديم ، وأخذت المطبعة تزيد المتأدين بنفائس الأدب العربي في أبهى عصوره ، وكان من الطبيعي أن يحذو الشعراء حذوه في أول الأمر ، فقلدوا الشعر العربي القديم في أوج عزته كما فعل ، ولم يهتموا الا نادرا بما تخلف عن عصور الضعف ، من حلى وزخارف ومحسنات وتاريخ شعري .

ويعد البارودي بحق زعيما ورائدا لما يطلق عليه . المدرسة التقليدية الحديثة .

خصائص هذه المدرسة :

متانة الأسلوب والعناية به عناية فائقة ، فقلما نجد خروجاً على قواعد اللغة أو خطأ أو ركاكة ، وانما نجد شعراً مصقولاً متيناً ، مشرق الديباجة نجد هذا عند صبرى وحافظ والبكرى ومحرم والكاشف ونسيم ومن على شاكلتهم على اختلاف بينهم في تقليدهم الشعراء الأقدمين الذين تأثروا بهم ، فمنهم من راقه شعراء العصر العباسى والشعر في ازدهاره ، فقلدوا أبا نواس والبحتري والمتنبي وأبا العلاء وابن الرومي وعارضوهم في قصائدهم ونسجوا على منوال أسلوبهم ، جزالة في رقة الحضارة وعذوبة المدنية القديمة وولع بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز .

ومنهم من رجع الى الخلف أكثر من هذا فتوعر قليلاً وحاكى شعراء العصر الأموى أو الجاهلى ، وجاء شعره بدوى النسج ، متين التركيب ، عليه سيماء الفتوة العربية قبل أن ترققها الحضارة مثل عبد المطلب .

ومن خصائص تلك المدرسة أيضا استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ، ذات الروى الواحد ، والقافية الواحدة ، والوزن الواحد ، وكثيرا ما ابتدءوا تلك القصيدة بالنسيب كما كان يفعل شعراء العرب الأقدمون أو تركوا النسيب كما فعل ذلك من قبلهم بعض شعراء العصر العباسى حيث بدءوا بالغرض من غير تلك المقدمة الموروثة عن الجاهلية .

على أن القصيدة الحديثة لا تختلف عن القديمة فى تعدد عناصرها ، فلم ينظروا اليها نظرهم الى بناء متماسك الأجزاء . أو كائن حتى . الا قليلا ، حين وضعوها فى الأسلوب القصصى كما ترى ذلك عند حافظ وعبد المطلب أحيانا .

ولكن الغالب فى هذه المدرسة هو جعل البيت - كما كان من قبل وحدة القصيدة ويجوز فيها التغيير والتبديل ، من غير اخلال بالمعنى ، ولم يطرأ تجديد على موضوعات شعريهم اللهم الا ماقتضيه خصائص العصر العامة ، فأغلبهم كان مداحا يمدح الخليفة وان لم يعرفه ، وان لم تكن بينه وبينه صلة ، أو ثمة أمل فى أن يعرفه ، ويمدح الأمير وحاشيته ، ويغير ولاءه كلما تغيرت الوجوه الحاكمة من غير حرج أو تردد ، فكان الأمير هو المحور الذى يدورون حوله : مثلهم فى ذلك الأدباء الانجليز والفرنسيون قبل أن تظهر الحركة الرومانتيكية (١) .

(١) كانت الحركة الرومانتيكية فى أوائل القرن التاسع عشر ثورة على تلك التقاليد ومن أدباء الانجليز فى القرن الثامن عشر الذين مثلوا تلك المدرسة التقليدية وعنوا بالأسلوب ولم يلتفتوا الى الطبيعة ، وجعلوا للشعر ألفاظا خاصة به (درايدون Drydon بوب Bob - طومسون Thomson وغيرهم) وكلهم شاعر بلاط يغرم بالمديح ويتملق الحاشية .

وقد صرفهم المديح كما صرف أسلافهم العرب من قبل ، عن الاهتمام بالطبيعة والحياة الانسانية ، وان التفتوا في أخريات زمانهم الى بعض ذلك ، والى الشعب وآماله (نظرا لتطور الحياة في مصر) ، لكنهم مع ذلك كانوا ينظرون من خلال ذواتهم ومقدار تأثيرهم بالأحداث المحيطة بهم ، فلم يكن شعرهم في الشعب موضوعيا . وكانوا يهتمون بالطبقة الراقية من الأمة ، فيمدحون أعلامها ويرثون عظماءها ، ويتبادلون واياهم الرسائل الاخوانية .

وقد وصفوا بعض الأشياء ولكنهم ، قلما أفردوا للوصف قصائد بذاتها ، وأهمل أكثرهم الطبيعة المصرية ، أو قال فيها الشيء القليل ، ونظر اليها نظرة عابرة من غير أن يقف عندها طويلا على الرغم من تنبه الشعور الوطني والاحساس القومي في أخريات عهودهم .

ونراهم يحاولون التجديد في الموصوفات ، فيكثرون الكلام على البخار والطيارة وقد تخلف عند بعضهم شيء من الأغراض التي قضت عليها حركة التجديد ، فما زال مثلا الهجاء الشخصي والاجتماعي عند صبرى والفخر عند عبد المطلب وعلى كل ، فدائرة الشعر لديهم ضيقة وموضوعاتهم محدودة ، وان أفاضوا في الشعر السياسي والاجتماعي متأثرين بالحركات القومية التي لم يجدوا مندوحة من التأثر بها .

أما معانيهم فليس فيها جديد الا النادر كما ترى عند توفيق البكرى ، ومعظمها مأخوذ من الأدب العربي القديم ، أو المعانى المتداولة ، وخيالهم تصويرى مبنى على الاستعارة والتشبيه والمجاز . بل كثيرا ما تكون تشبيهاتهم غير مجارية لزمانهم أو بيئتهم وإنما نهجوا فيها نهج العرب الأقدمين ، متأثرين بالقوالب المحفوظة والعبارات المتداولة .

وكان أغلبهم متزمتا ، جادا في حياته ، واذا تغزل عف ولم
يفحش وفي أدبهم تكثر الحكمة والموعظة والارشاد ، فهم يجعلون
للشعر غاية يهدف اليها . ولم يعرفوا معنى « الفن للفن » .

والذين تتلمذوا على البارودي واقتفوا أثره ، عدد كبير من
شعراء العربية اتخذوه امامهم غير مدافع ، كشوقي وحافظ والرافعي
واسماعيل صبري وعبد المطلب والجارم والكاظمي والرصافي وأحمد
محرم والكاشف ونسيم والزين وغيرهم ، على تباين بينهم في حظ
كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة جديدة نشيطة تزعمها مطران
وشكري والعقاد والمازني وأبو شادي ، فلا زال كثيرون من البلاد
العربية بعامة وفي مصر بخاصة ، يحنون الى ديباجة البارودي
وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد في المعاني والاختلا
والصور . وحسب البارودي فخرا أنه أحيا الشعر بعد مواته على
غير مثال سبق من معاصريه .

حالة الشعر بعد البارودي

من الغريب أن الثورة الفكرية التي أحدثها السيد جمال الدين الأفغاني بمصر ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ، قد أطفأها الانجليز بطريقتهم العقيمة في الثقافة والتربية ، ولم ينج من شرهم الا نفر قليل شاهدوا هذه الثورة الفكرية في عنفوانها ورضعوا أفاويقها ، فظلوا الى أوائل القرن العشرين يحملون المشعل ويهدون الأمة سواء السبيل .

أما الشعراء فلم يتأثرو بهذه الثورة في قليل أو كثير ، ولم يلتفتوا كما التفت الكتاب الى الشعب يفحصون عن علله وأدوائه وآلامه وآماله ، ويغذون فيه تلك الروح الوثابة بل انصرفوا الى الأمراء والوزراء ، وذوى الجاه والمال يتملقونهم ويستجدونهم ، لقد صار النثر بفضل جمال الدين ومحمد عبده وعبد الله النديم والمويلحي وأضرابهم معبرا عن حاجات الشعب ، بينما ظل الشعر بمنأى عن رغباته ومطالبه مكبلا بقيود الماضي .

حتى هؤلاء الذين تتلمذوا على البارودي لم يحاكوه في نبل أغراضه ، وصدق عاطفته وجمال تصويره للبيئة ، لقد كان البارودي صادقا في شعره حين يصف الريف المصري وما فيه من مناظر وزرع نضير ، وهدوء ، وشمس ضاحية ، وظل ورثف ، وحين يرثي

أحبائه وأقاربه وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته في ميادين القتال ، ويصف بجانب هذا الميدان ، وطبيعته والأعداء وأحوالهم ، وحين يعبر عن ميوله السياسية وما قاساه على يد الخديوى من اغتراب ومحنة ، وحنين الى الأهل والوطن ، ولم يمدح البارودى الا نادرا ولم يرث الا صديقا أو حبيبا .

وعلى العكس منه نرى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه في الأسلوب واغترفوا من تلك الينابيع العربية التي وردها ، نراهم مداحين ، هجائين ، ندابين لكل عظيم ، ويقول الدكتور طه حسين (١) (وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلي فنا عرضيا لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناء الجديد طلب الى شوقى قصيدة ، فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت (دار العلوم) أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون ، طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد واذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه ، وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والثناء ، فنظموه كما ينظمه القدماء فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم وأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهرا من مظاهر الجمال الطبيعى الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليلمق عاطفة من العواطف ، أو هوى من الأهواء فلا تلتمسه عندنا ، ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربثوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة وكان جمهور المثقفين يطرب لهذا النوع من الأدب لأنه لا يعرف غيره ، ولأنه يحاكي تلك الألوان التى عرفها

(١) فى كتابه حافظ وشوقى ص ١٤٩ .

من الأدب العربي القديم ووعتها حافظته وفضلا عن هذا كله فان هذا النوع من الأدب كان نتيجة لازمة للتربية الانجليزية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني التي كان من أهم عناصرها تنمية الذاكرة وقدرتها على الاستيعاب ، واهمالها المواهب الانسانية الأخرى كالتفكير والتأمل ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلي والحرية في الرأي مما دعا الدكتور محمد حسين هيكل (١) أن يقول :

« ويجب أن نعترف ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعد أكثرتنا للتأثر الفردي والاحساس الذاتي ، فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا أن نميز من هذه الصور ما يأخذ بهما ، ويلفتها لفتات خاصة بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ، ويكرههما على الخضوع لها والايان بها . »

لقد عمد الشعراء الى استظهار كثير من الأدب العربي القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلوب ويملكوا ناصية القوافي ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعبيرات ، بيد أن هذا الاستظهار أورثهم الجمود وتقليد الشعر العربي القديم ، في أساليبه وصور بيانه من كناية واستعارة وتشبيه ومجاز ، وفي موضوعاته ، ولم يستخدموا اللغة التي أحاطوا بمفرداتها ، في أغراض عصرهم وتصوير بيئتهم والتعبير عن خلجات نفوسهم وهزات مشاعرهم في صور من البيان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ومدنيتهم الحديثة وانما احتذوا الشعراء القدامى في كل شيء وعارضوهم في مشهورات قصائدهم .

(١) كتاب ثورة الأدب ص ٦٥ .

عصر اسماعيل صبرى

الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر

كانت مصر قبيل ظهور الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحا للأعياب السياسية ، فهى فريسة الشد والجذب بين مطامع الدول الأوروبية وأهواء الباب العالى ، وأثرة الأسرة الحاكمة . وكان الخديو اسماعيل آنذاك فى أواخر أيام حكمه ، وقد ناءت البلاد فى ظل حكومته المطلقة وارهاقها الأهالى بالضرائب والأحكام الجائرة .

ومنذ انشاء قناة السويس ، وافتتاحها رسميا سنة ١٨٦٩ ، واعتبارها الشريان الحيوى للمواصلات بين الشرق والغرب ، وأعين الطامع الاستعمارية متفتحة متربصة ، تلتمس الفرصة للانقضاض على استقلال البلاد .

وأخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، وذلك بأن فتح باب الاستدانة على مصراعيه ، وكبل مصر بقروض مالية ضخمة بالنسبة لثروة البلاد فى ذلك الوقت ، وكانت بيوت المال التى تقرضه تفرض عليه أفحش أنواع الربا؟؟ وقد أدت هذه القروض التى لا موجب ولا ضرورة لها الى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية ، واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم ، وقلق

المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلبى ذلك القلق ابان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ولم يكن اهتمام المصريين بهذه الحرب راجعا الى شعورهم الدينى وتعلقهم بدولة الخلافة - التى كانت مهددة حينئذ بالاضمحلال ، ولكن الواقع الذى لاشك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسيا أكثر منه دينيا ، لأن تقسيم الامبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر فى قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة المصرية السياسية تظهر ، وبدأ الرأى العام يقوى أمام ضعف اسماعيل ازاء التدخل الأجنبى ، وظهرت فى البلاد حركة قومية دستورية تطالب بتغيير سلطة الحكومة المطلقة ، التى كانت فى الداخل رمز بطش وجبروت وفى الخارج رمز الضعف والاستكانة ، وتطالب أيضا باصلاح داخلية البلاد وماليتها لتخليصها من ربة الأجنبى ، **وكانت الفكرة الدستورية تستمد قوتها من العوامل الآتية :**

١ - وجود مجلس نواب صورى سنة ١٨٦٦ كان آلة فى يد اسماعيل ، فلما تطورت الأحوال أراد المصريون توسيع سلطة المجلس واعطائه حق الرقابة الفعلية على أعمال الحكومة .

٢ - بعث المصلح الوطنى الكبير جمال الدين الافغانى فى نفوس المصريين منذ وفوده الى مصر سنة ١٨٧١ فكرة اقامة نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق السياسية .

٣ - تمادى الأجانب فى أطماعهم وسطوهم على حقوق البلاد، لعدم اعتماد اسماعيل على حكومة شعبية ، مرتكزة على الأساس الدستورى ، وبالتالي فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصلحة حاكم مستبد !!

٤ - كان للبعثات المالية الانجليزية التى وفدت الى مصر فى الفترة من (١٨٧٦ - ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء

ادارة اسماعيل والنيل من روح ولاء المصريين نحوه ، واضعاف
اخلاصهم له ، حتى يسهل بذلك للأجانب اغتصاب السلطة منه .

وقد لعبت بعثة السير ريفرزولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر
في هذه السياسة فنددت في الأقاليم المصرية بأعمال اسماعيل ،
وطلبت من المصريين أن يقدموا مظالمهم اليها ، ثم صرحت في
تقرير لها بأن الحكم المطلق هو أصل البلاء وحملت اسماعيل
(بمرسوم صدر منه في ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨) على انشاء
مجلس وزراء متضامن في مسئوليته ، برئاسة نوبار باشا وعضوية
ريفرزولسن وزيرا للمالية ودي بلنير وزيرا للأشغال .

ونخلص من هذا أن مصر في تلك المرحلة العصبية من
تاريخها كانت تعاني من تدخل الأجانب وتغلغل النفوذ الاستعماري
في جميع مرافقها سواء كانت أهلية (شركات) أو حكومية حيث
كانت الادارة المصرية في أيدي الأوربيين وترك الخديو اسماعيل
البلاد سنة ١٨٧٩ وهي مثقلة بالديون .

كما شهد اسماعيل صبرى نهاية الثورة العرابية بل نهاية
عرابي الثائر المصري المخدول ، ورأى الانجليز يحتلون مصر ،
 ويفرضون على شعبها كابوس الاحتلال البغيض ، فكان لهذه الأحداث
أثرها المتباين في نفسه ، وكانت مصر في تلك الفترات - بالرغم
من الاحتلال الانجليزى - ما تزال تابعة للخلافة العثمانية تدفع
الأتاوة السنوية ويخطب في مساجدها أيام الجمع بطول العمر
للسلطان ، ولكن هذه التبعية كان شكلية ، لأن معاهدة لندن سنة
١٨٤٠ قد حددت مركز مصر الشرعى الذى اعتزمت الدول احترامه ،
فحين وقع الاحتلال البريطانى في سنة ١٨٨٢ عصفت بالاستقلال
المعترف به في تلك المعاهدة ؟

وقد أثار الاحتلال البريطانى رد فعل قوى في نفوس المصريين

الذين انشطروا شطرين ، فمنهم من كان يريد أن تظل مصر مرتبطة بالدولة العثمانية والاستفادة من علاقتها بتركيا في تخلص البلاد من الاحتلال البريطاني ، - ومنهم - وقد ذاق حكم الاتراك البغيض وأتباعهم من الشراكسة ، - رأوا أن المصلحة الوطنية تدعوهم الى الدعوة بمبدأ « مصر للمصريين » .

كانت الوطنية المصرية اذ ذاك في ابان نشأتها ، والدعوة اليها في أشد قوتها بتأثير جمال الدين الأفغانى ، وكان أحمد عرابى وصفوة من أصدقائه المكافحين قد جعلوا شعارهم أن تكون مصر لأبنائها الخالص لا للدخلاء والمستعمرين ، الا أن اخفاق « الثورة العرابية » قد أدخل اليأس فى النفوس ، وراى على صدور المصريين جوانب مظلمة من الحيبة والقنوط ، ذلك لأن ثورة عرابى التى قامت لأجل تحقيق حرية البلاد السياسية قد انتهت بفقدان هذه الحرية تماما ، ثم يفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل ، وليس هذا فقط بل شهد المصريون خلال هذه السنوات التواء السياسة الانجليزية ونقضها عهودها فى الجلاء ، وشهدوا جمود الدول الأوربية ازاء المسألة المصرية ، وتركها انجلترا تعبت باستقلال مصر ما تشاء من العبث .

وشهدوا تهدم صرح الامبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التى أسسها محمد على باشا وخلفاؤه فى السودان . . بل شهدوا خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى والغاء الجيش المصرى وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، والنفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وادارية ثم شهدوا استسلام رجالات مصر لادارة العميد البريطانى وتقرب أكثرهم اليه والتماس الزلفى لديه .

وبينما مصر تتخبط في خضم تلك الظروف العصيبة ، وقد بلغ اليأس من نفوس المصريين أقصاه ، ظهر على المسرح السياسي ، شباب جرىء ، أخذ يبدد بخطبة ومقالاته اليأس والقنوط من نفوس مواطنيه ، ويثير فيهم روح التمرد والثورة على الاحتلال . . ذلكم هو الزعيم الخالد مصطفى كامل الذي ناصب المحتل الفاصب العدا ، وأثار موجة الغضب والكراهية والاحتجاج ضده ، في جميع أنحاء العالم المتمدن ، طالبا جلاءه عن أرض مصر .

ورأى للوصول الى تحقيق أمنيته في استقلال البلاد أن لا يحارب في جبهتين ، فهو في ثورته ضد الاحتلال البريطاني رأى ان يصانع ولو مؤقتا الخليفة العثماني للافادة من نفوذه وسلطانه الروحي .

ولكن هذا الاتجاه دفع خصومه أن يتهموه بممالة السلطان والعمل على نقل مصر من حكم الاحتلال البريطاني الى الحكم العثماني ، وهي تهمة روج لها أنصار الاحتلال ولكنه رد عليهم بأسلوبه القوي اللاذع .

« أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد ، وانهم يطالبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهي دعوى لا يقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب حتى آخر لحظة من حياتنا » (١) .

(١) من مقالته في جريدة اللواء الصادرة في ٢ مايو سنة ١٩٠٦ - كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٤٣ .

وقد عاصر اسماعيل صبرى باشا الزعيم الوطنى مصطفى كامل منذ حداثته حين كان طالبا بمدرسة الحقوق الخديوية ، وظهرت أول بواعته الوطنية ، وظل متابعا جهاده ، ملازما ومشجعا اياه ، مؤيدا جهاده حتى وافاه الأجل المحتوم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، وسوف نفرّد فصلا خاصا بالعلاقة الوثيقة بين مصطفى كامل والشاعر الكبير فى الأبواب التالية من الكتاب .

التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر

أدرك الشاعر فى طور التلمذة ، حكم اسماعيل وعهده (١) ، ويعتبر عصر اسماعيل عصر التجدد الاجتماعى ، ففيه أخذت الهيئة الاجتماعية المصرية تقبس من أساليب المجتمع الأوروبى وعاداته ، ومال المصريون الى محاكاة الأوربيين فى جميع طرائق المعيشة ، وبصفة خاصة الطبقة المثقفة، التى حظيت بالثقافة الأوربية، والعلوم الأجنبية ، فانها صارت فى طليعة الطبقات الأخرى فى تقليد الأوربيين واقتباس عوائدهم وأساليبهم ومنها النافع ومنها الضار ؟

ففى المسكن شرعوا يبنون البيوت على النظام الأوروبى ، وهجر المتعلمون ومن حاكاهم من السراة والأعيان الملابس الشرقية كالجبة والعباءة والعمامة وارتدوا الطربوش والبدايات الافرنجية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الأوربية ، فيما عدا القبعة فقد أعرض المصريون عنها ومن مظاهر التطور الاجتماعى أقبال الناس على الرياضة والتنزه ، فارتادوا المتنزهات والضواحي وخاصة بعد انتشار العربات التى سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها . فأخذ سبل المركبات لا ينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا، ثم فى طريق الجزيرة والجزيرة والاهرام وكان لانشاء «كوبرى» قصر النيل فضل كبير فى

(١) راجع كتاب عصر اسماعيل جزء ٢ لعبد الحمن الرافعى بك .

عميل الجماهير الى التنزه لاجتلاء محاسن النيل وجسره البديع والتمتع
برياض الجزيرة والجزيرة والقناطر الخيرية وغيرها .

وبدا على المجتمع الميل الى المرح والحبور ، ويرجع هذا الميل
الى الثراء والرفاهية ، ثم انتشار التعليم ؛ ومن هنا ظهرت النهضة
الغنائية في عصر اسماعيل ، وازداد اقبال الناس على سماع الأغاني
والموسيقى ، وارتقت أساليب الغناء ، وزادت مكانة المغنين في
النفوس وفي مقدمتهم عبده الحمولى وارتقى الذوق الموسيقي
في المجتمع (١) .

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ومشاهدة
الروايات التمثيلية ، وابتدع الخديو اسماعيل عادات الرقص
الافرنجى ، فكان يقيم في سراى الجزيرة وعابدين حفلات راقصة
(بالو) بالغة منتهى الفخامة وكان يدعو اليها الكبراء وذوى المراكز
الاجتماعية الكبيرة (٢) . ورجال السلك السياسى ، وكانت «الوقائع
المصرية» تعنى بنشر أخبار هذه الحفلات ، فى مكان بارز من
صحافتها .

وكانت لحفلات الأفراح فى ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان
السراة والأعيان يفتنون فى تفخيمها وتنظيمها ، ويتنافسون فى
مظاهر البذخ والاسراف فيها ، كما امتاز هذا العصر ببهجة الحفلات
العلمية والمدرسية التى كانت تقام لمناسبة انتهاء العام المدرسى فى
المعاهد العالية والمدارس الثانوية والابتدائية ، فقد كان يحضرها
الخديوى أحيانا ويشهدهما كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز
والمكافآت على أوائل الناجحين . ولحفلات سباق الخيل فى ذلك

(١) سيأتى ذكر ذلك فى اسام الشاعر فى تأليف الأغاني لعبده الحمولى .

(٢) عهد اسماعيل جزء ٢ لعبد الرحمن الرافعى .

العصر مظاهر رائعة، اذ كان الجمهور يتسابق الى مشاهدتها في القاهرة (بالعباسية) وفي الاسكندرية ، واستمرت حفلات الموالد والأعياد الدينية موضع اقبال الناس ورعاية الحكام .

النهضة النسائية

وبدأت النهضة النسائية في عصر اسماعيل ، اذ أنشئت المدارس لتعليم البنات(١) وبدأت المرأة تشترك في نصيبها في النهضة ، الاجتماعية والأدبية ، فكانت الشاعرة « عائشة التيمورية » طليعة هذه النهضة ، وكان لرفاعة بك رافع الطهطاوى فضل كبير في ترقية المرأة المصرية ، وجاء بعده المصلح الكبير ورجل القضاء الشهير قاسم أمين ، فكتب كتابي « تحرير المرأة » ، « المرأة الحديثة » ودعا دعوته الكبرى بتحرير المرأة والغاء الحجاب .

الأسرة الحاكمة - (الخديوى والأهراء)

تفرعت الأسرة الحاكمة وكثر عدد أفرادها في عهد خلفاء محمد علي ، وصاروا يمثلون طبقة ممتازة في المجتمع ، ورغم أن محمد علي باشا عني بتنشئة أنجاله تنشئة صالحة ، فعلمهم في المدارس وبعث بعضهم الى أوربا لاتمام علومهم ولم يقصر في تثقيفهم واعدادهم للقيام بالمهمات الكبرى ، الا أن خلفاءه قصروا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانتساب اليه ، فمع أن محمد علي هو باعث نهضة اللغة العربية وآدابها ، فان الأمراء والأميرات من آل بيته قلما كانوا يتعلمون اللغة العربية ، ويدرسونها ، وكانت اللغة التركية هي لغة التخاطب والتفاهم في بيوتهم . وقد عنوا بدراسة اللغات الأجنبية وبصفة خاصة اللغة الفرنسية . وثمت ظاهرة أخرى بدت على الأمراء والأميرات من البيت العلوى ، وهي التنافس

(١) عهد اسماعيل جزء ٢ لعيد الرحمن الرافعى .

والتحاسد فيما بينهم ، مما أدى في بعض المواطن الى بغض متبادل
وعداة شديد ، ولو ساد الوفاق بينهم وصرفوا جهودهم الى مافيه
خير البلاد وسعادة أهلها لنالت على أيديهم أطيب الثمرات .

الموظفون :

ارتقى مستوى الموظفين عما كانوا عليه من قبل ، لأن كثيرا من
الوظائف قد شغلها خريجو المدارس في عهد محمد علي وخلفائه ،
ولكن معظم الموظفين لم يضعوا نصب أعينهم الاخلاص في أداء
الواجب نحو البلاد ، وتوفير مصالح الأهالي ورعاية الحق والعدل
واتخذوا الوظائف وسيلة للاستغلال والاثراء ومن هنا جاء سوء
الادارة وانتشار الرشوة ومظالم الحكام وقلما كان الرؤساء من
الموظفين والحكام ينظرون الى مصالح البلاد والأهلين بل أهملت هذه
الناحية اهمالا جسيما ، حتى لم يكن للأهالي حقوق محترمة
ولا مصونة أمام الموظفين .

(١) الزراعة والصناع والتجار

أما الفلاحون فقد ساءت أحوالهم بما زاد عليهم من أعباء
الضرائب ، وما اقترن بها من القسوة في تحصيلها ، ولم يشعر
الفلاح في عهد اسماعيل بالراحة والرخاء اللذين كان يشعر بهما في
عهد سعيد ، وظلت السخرة قائمة حتى ذلك العهد ، ولم تكن
قاصرة على المنافع والأعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح
أطيان الخديوى وأطيان الحكام . وبقيت المظالم يرزح الناس تحت
نيرها ، وقاعدة الحكام في معاملة الفلاحين هي القهر والارهاق .

(١) عصر اسماعيل الجزء الثاني : تأليف عبد الرحمن الراجحي بك .

وكان الضرب بالكرباج عادة مألوفة في جباية الضرائب والاقصاص ممن يخالفون الأوامر أو يستهدفون لغضب الحكام لأى سبب ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل يحميان الضعيف وينصفان المظلوم .

ولا رقابة على الحكام من حكومة عادلة أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام ، ووقع على الأهالي ارهاق آخر من ناحية الأجانب . من المرابين وغيرهم . اذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يستغلون الفلاحين والأهالي الى اقصى درجات الاستغلال ، حتى انتزعوا منهم الأملاك والأموال وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يجد الفلاح من الحكومة حماية لحقوقه .

٢ - الأعيان

كان الأعيان أحسن حالا من الفلاحين وسائر الأهليين ، فقد اقتنوا الأطيان والضياع واستصلحوا أطيانهم القديمة ، وزادت ثروتهم بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران كشق الترع واقامة القناطر وتسهيل وسائل الري وانشاء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات ، فزاد دخلهم من أطيانهم ، وراعت الحكومة جانبهم ، وكانوا هم من ناحيتهم يخضعون لأوامر الحكومة ويتزلفون الى الحكام لينالوا رضاهم بالهدايا والرشا وما الى ذلك . وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية ، فازدادت منزلتهم وعظم جاههم وراعى الخديوى جانبهم ، وأنعم على كثير منهم بالألقاب والرتب ، وأسند المناصب الادارية والقضائية الى فئة منهم ، فكان منهم المديرون ورؤساء المجالس (المحاكم)

(٢) عصر اسماعيل الجزء الثانى : تأليف عبد الرحمن الرافعى .

الابتدائية والاستثنائية ، ومجلس شورى النواب كاد يكون مقصوراً
على طبقتهم •

وامتازت طبقة الأعيان بالكرم وقوة الأخلاق ، واتسموا
بالشهامه والمروءة والوفاء وقل منهم من كان يسىء معاملة فلاحيه
ويلوح لنا من هذه الناحية انهم كانوا خيرا ممن خلفوهم فى العصر
الحديث •

تاريخ حياة الشاعر

ولد اسماعيل صبرى بالقاهرة ، فى ١٦ من فبراير سنة ١٨٥٤ ، من عائلة متوسطة ربها تاجر من تجار العاصمة هو امام قسدة ، ينتمى الى أصل حجازى ، وكان على جانب كبير من التقوى وان لم يكن على جانب كبير من اليسار ؛ وحرم العلم فى صباه ؛ ولكنه عزم على أن يعوض ذلك فى تعليم ابنه والانفاق عليه ، فعلمه أولا فى المنزل على أيدي الفقهاء ، درس على أيديهم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم ، ثم اذا استوى عوده ، ألحقه بمدرسة المبتدیان الابتدائية الأميرية فى ٢٣ من أكتوبر سنة ١٨٦٦ ، وبعد أن أتم دراسته بها بنجاح وتفوق التحق بمدرسة الادارة والألسن سنة ١٨٧٠ ، وفى أثناء دراسته بهذه المدرسة ، ظهرت مواهبه الفنية فى تجويد الكتابة العربية ، حيث أنه منذ حدثه كان على حظ وافر من اجادة الخط والخبرة بمواضع الحسن فيه ؛ حتى أن أساتذته رغبوه فى الاشتغال بعد تخرجه ؛ بالتعليم فى مدارس الحكومة لمادة الخط العربى ، وكاد أن ينفذ هذه الرغبة ، لولا أن على مبارك باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت ، كان فى زيارة للمدرسة ، وقدم اليه كأحد الطلبة النوابغ فى الخط العربى ، وأنه بصدد تقديم طلبه للوزارة ، بعد تخرجه للالتحاق بوظيفة معلم للخط العربى ، ولما ناقشه على باشا مبارك ، ووقف على تقارير

المدرسة ، ونتائج امتحاناته ، وتفوقه في المواد الدراسية ، أيقن أنه من الحسارة أن يهمل هذا الطالب وأن تقتصر الافادة منه على تعلم الخط العربي ، فأخذ في اقناع الطالب للانصراف عن هذه الغاية وقال له (١) :

« انى ضنين بذكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بها فيقفا عند غاية لاتخلق بمثلك ، وانى أعدك لما هو أسمى رتبة ، وأجدى على الأمة من الانتفاع بفضلك وكفايتك » ولم يزل يبالح فى تعهده ورعايته حتى أتم دراسته وأرسل الى مدينة اكس بفرنسا ، للتخصص فى دراسة العلوم القانونية بها ، .

وأهضى سننى الدراسة بنجاح ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية مدينة اكس فى ٢٠ من مايو سنة ١٨٧٨ (٢) ، وعاد الى مصر ليعين مساعدا بمحكمة مصر الابتدائية المختلطة فى ١١/٧/١٨٧٨ ثم نقل الى محكمة المنصورة المختلطة فى ١/١٠/١٨٧٨ ثم نقل الى محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة فى ٢٩/٤/١٨٨٠ .

ثم عين نائبا فى محكمة المنصورة فى ١٣/٢/١٨٨٣ ، ثم وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية فى ١/١/١٩٨٤ ، وأنعم عليه بالرتبة الثانية ثم رئيسا لمحكمة بنها فى ١٣/٣/١٨٨٦ ثم رئيسا لمحكمة الاسكندرية الأهلية فى ٢٢/٦/١٨٨٦ .

وأنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩١ ، ثم عين قاضيا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ٣٠/١١/١٨٩١ ، ثم وكيلا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ٢٧/١٢/١٨٩١ وأنعم عليه رتبة المتمايز فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، ثم أضيفت اليه أعمال

(١) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين .

النائب العام لدى المحاكم الأهلية في ٢١/٤/١٨٩٥ . ثم رقى الى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية في ٥/١٢/١٨٩٥ ، وهو أول مصري يرقى لهذا المنصب ، وفي ذلك يقول المرحوم حفي بك **ناصف مهنتا :**

لم ينلها سواك من أهل مصر والمعالى بالخطب الكفء تدرى
طمحت أنفس اليها فصانت حسننها عنهم صيانة بكر
وابتغت كفتها فكنت رضاها فهي شمس جرت الى مستقر

ثم عين محافظا للاسكندرية في أول مارس سنة ١٨٩٦ ، ثم رقى الى وكيل الحقانية في ٦ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وهذا هو أرقى وآخر منصب شغله في الحكومة حتى اعتزاله الخدمة في ٢٨/٢/١٩٠٧ .

وقد جاء في ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٨ بإشراف صديقه الأستاذ أحمد الزين . أنه أحيل الى المعاش في ٢٨/٢/١٩٠٧ بعد انتهاء خدمة في الحكومة ومدتها ، ٤١ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٠ يوما ، وهذا خطأ بين ، لأن اسماعيل صبرى من مواليد ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ كما جاء في نفس الديوان اذ يكون عمره وقت تركه الخدمة ، ٥٣ سنة و ١٢ يوما ، أى قبل وصوله الى سن المعاش الرسمي وهو ستون عاما ، ويصبح الموضوع هو اعتزال الخدمة وليس احالة الى المعاش ، ونحن نرجح أسباب ذلك فيما يلي :

أولا : اعتناقه مبادئ الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، واظهار تأييده له وتشجيعه ، علنا ، دون تحرج أو خوف ، ولم تكن حكومة الاحتلال الانجليزى تنظر بعين الرضا لآى موظف كبير أو ذى منصب رفيع فى الدولة ، يجاهر بتأييده مصطفى كامل وقد ترقى اسماعيل صبرى سلم الوظائف القضائية حتى وصل الى أعلاها وهى

وظيفة وكيل الوزارة ، وأصبح تجاوز هذا المنصب في ذلك الوقت رهينا بشيء آخر أكثر من الكفاية والذكاء وهو ما لم يكن مستعدا لأن يضحى بوطنيته وإبائه وكرامته في سبيله .

ثانيا : كان اعتزال اسماعيل صبرى الخدمة احتجاجا صامتا ، على انعقاد المحكمة المخصصة صباح يوم ١٩٠٦/٦/٢٧ لمحاكمة المتهمين في حادثة دنشواى (مما سيرد أمره فى موضع لاحق بهذا الكتاب) ، واصدارها أحكاما صارمة على المتهمين ، متجاهلة أبسط قواعد العدالة والانسانية . (وقد استصدر اللورد كرومر فى ١٨٩٥/٢/٢٥ مرسوما من الحكومة المصرية بإنشاء (المحكمة المخصصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالتعدى على ضباط وجنود الاحتلال بمصر ، وينص المرسوم على تأليفها برئاسة وزير الحقانية (العدل حاليا) وعضوية المستشار القضائى (الانجليزى) وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائم باعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الاسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، وقد جعل لها نظاما خاصا فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات . وكان انشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى وتثبيت لأقدام الاحتلال (١) .

وقد وجد اسماعيل صبرى فى تشكيل المحكمة المخصصة ، باعتبارها محكمة استئنائية ، (لا دستور يقيدھا (٢) ولا قانون يربطھا ، ولقضااتها أن يحكموا بكل العقوبات ، دون التقيد بالقوانين

(١) احتج الزعيم مصطفى كامل على تشكيل هذه المحكمة ، ونشر الاحتجاج بجريدة الاهرام فى عددها الصادر فى ٤ مارس سنة ١٨٩٥ .

(٢) مصطفى كامل ناعت الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

المعمول بها ، ولا تستأنف أحكامها) اهانة كبيرة له باعتباره أكبر قاض في البلاد ويشغل أكبر مركز قضائي بوزارة الحقانية ، فلم يطق السكوت ، وحيث أن الظروف لم تكن متاحة أمامه لكي يقوم بعمل كبير ازاء هذه الكارثة الوطنية الكبيرة ، فقد استقال باعتبار الاستقالة احتجاجا صامتا على هذا الحكم الظالم .

ولا مرأ أن حادثة (١) دنشواى كان لها الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية وفي مركز الاحتلال البريطانى ، فهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال .

والفترة ما بين اعتزاله الخدمة ووفاته سنة ١٩٢٣ ، كانت وقفا على نظم الشعر والاتصال بالهيئات الاجتماعية ، وتقديم الخدمات للأدباء الناشئين ، وغشيان المجالس الأدبية ، كما لم يؤثر عنه أى نشاط سياسى معاصر لثورة سنة ١٩١٩ لاصابته بالذبحه الصدرية وملازمته الفراش ، وقد كانت وفود الأدباء والشعراء (وعلى رأسهم أحمد شوقى بك) تعوده وتزوره من حين لآخر .

ثقافته :

درس التركية والعربية والفرنسية بالمدارس المصرية ، ثم أكمل تعليمه العالى بفرنسا كما أوردنا آنفا ، ويدلنا شعره المبكر على أنه ألم من العربية بقدر مكنه من نظم الشعر وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وقد تمرس بأشعار البحترى ، مدمنا لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء ، وقد أخذ عن البحترى الكثير من حلاوة التنسيق

(١) المصدر السابق .

وعذوبة الألفاظ ووضوح المعنى ، وعدا هذا فقد قرأ لشعراء كثيرين ، وجمع من هذه القراءة ذخيرة كبيرة من الألفاظ والمعاني ، راضت قريحته ، وشحذت مواهبه ، أما اطلاعه على الأدب الفرنسي ، وقد اتبحت له فرصة ذلك حينما تلقى دراسته في فرنسا - وقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يتلمس آثار ثقافته الفرنسية في أدبه ، وساق غير مثل على ذلك ، ولكننا نرى أن ما أورده له شبيه في الأدب العربى القديم ، ونكاد نجزم أن اسماعيل صبرى حينما فكر فيه ، لم يرد على ذهنه الأدب الفرنسى وإنما أعانته ذاكرته الواعية بما استظهره سابقا ، حينما كان يروض القول ويحاكى الأقدمين .

اخلاقه :

نشأ الشاعر من أسرة كريمة ، تشبع منها بشمائل ممتازة ، يدلنا على ذلك ماظهر من أخلاقه وصفاته وطباعه على الملأ ، وما تحدث الناس عنه ، وآثرهم بالذكر صديقه الحميم أحمد الزين الذى قال عنه سنة ١٩٣٨ فى مقدمة ديوانه .

« أكتب عن هذا الصديق الكريم ، والدمع يسابق القلم فى التعبير عما لازم نفسى خمسة عشر عاما ، من لوعة مستعصية على العزاء ، وذكرى أبية على النسيان خمسة عشر عاما خلت على فجيرة المودات الكريمة بذلك القلب الذى ما خطرت به جفوة وذلك اللسان الذى لم تجر عليه هفوة ولعمري ان فجيرة الأصدقاء بفراقه لأشد وانكى من فجيرة الشعر لصحبته ، وقدما شكنا الناس قلة الوفاء والأوفياء وما شكنا أحد من قلة الشعر والشعراء » .

وكان حليما متسامحا ، صورة رائعة لمكارم الأخلاق ، لا يكد لأحد ولو كان من ألد أعدائه لاجبنا ، بل محافظة على ما يقتضيه شرف الخصومة ، شديد الضن بحزمه وصبره ورجولته

على الشكوى . فما سمعه أصدقاؤه قد شكوا آلام مرضه العنيف في
أخريات أيامه ، ولا جحود الذين أحسن اليهم وغمرهم ببره ثم بعد
ذلك يقابلون احسانه بالكفور ووفاءه بالخذل ، ولم تكن تلقاء الا باسم
الثغر مشرق الوجه منبسط المحيا .

كانت تعلقو سيماءه الوقار ، ويزين شخصه المهابة ، يدل مظهره
النبيل على مخبره الرضى ، وكان ذا شخصية جذابة ، لها نفوذ عجيب
وتأثير بالغ على محدثيه ومرافقيه ومع ذلك فهو بين أصدقائه وفي
مجلس الألاف والسمار السمر الذى لا يمل سماعه ، والظريف
الأنيس فى مداعباته وفكاهاته ، حلو النادرة سريع البديهة ، حاضر
النكتة ، يرسلها مهذبة مبتكرة فى لين صوت وحسن أداء ، وقرب
مأخذ واصفاء من الجلساء .

وقد روى معاصروه من رجال القانون ، أن احكامه كانت تميل
الى علاج المجرم لا الى الانتقام منه ، ففيها عطف وزجر ، مع مراعاة
الظروف والملابسات التى تمت فيها الجريمة ، لأن قلبه ودماثة خلقه
كانت لها أكبر التأثير فى تصرفاته ، فرب انسان دفعته ظروف
قاهرة لارتكاب جرم ما ، لو راعى القاضى ظروفه وأوقع عليه حكما
مخففا لخرج الى المجتمع دون حقد ولا موجدة ، ليستأنف حياته بين
قومه ومعاشره على أحسن ما تكون أساليب المعاملة والمودة .

وكان يرعى صفار الأدباء والشعراء ، وبصفة خاصة الناشئين
منهم ، فهو يقربهم اليه ويفتح لهم أبهاء قصره يزورونه فى غير
ما خوف ولا رهبة ، يعرضون انتاجهم ويعرضون عليه ظروفهم
وأحوالهم - فكان عند حسن ظنهم من رعايته لأمرهم ومصالحهم ،
وقد حدثنى صديقى الشاعر الكبير أحمد رامى (١) ، أنه حين كان

(١) مجموعة اقرا عدد ٢٦٨ أحمد رامى تاليف دكتورته نعمات أحمد فؤاد ص ٩ .

موظفا صغيرا فى بدء حياته الحكومية بدار الكتب كان يزور اسماعيل صبرى باشا فى قصره ويجد فى كنفه كل رعاية واکرام نعم كان اماما لافى أدبه فحسب بل فى أخلاقه ونبله وسموه وترفعه عن الدنيا وحفاظه على أسمنى ما يجب أن يتحلى به الأدباء .

ومن أدلة اعتداده بكرامته ، انه ما كان يقبل مدحا فيه يعلم كذب قائله ، زاره مرة أحد الكتاب وقرأ عليه مقالا طويلا فى مدحه والثناء عليه ، فألح عليه اسماعيل صبرى بعدم نشره ، ومنحه مبلغا من المال ليقبل رجاءه فسأله أحد أصدقائه عن ذلك فقال : انى اذا رخصت لهؤلاء فى المدح الكاذب فى حالة الرضا ، فقد رخصت لهم فى الذم الكاذب فى حالة الغضب (١) .

وفى أول مايو سنة ١٩٢٣ أقام الأدباء ورجال الفكر ، حفلة من أروع حفلات التأبين ، بدار المعلمين العليا بالمنيرة ، وكان ذلك بمناسبة ذكرى الأربعين ، وتحدث كل أديب عن الصورة التى كان يرى بها اسماعيل صبرى ، وكان الحفل معرضا لاجود ما قيل من مراثى الشعر والنثر وكانت الصور التى ظهرت بهسا ذكرى الفقيه هى :

(أ) صورة صبرى الشاعر ، الذى كان يغوص « عمان » القريض ، ويعتاده داثبا لتهيئة دوره ، والذى كان يجيء بالقصار فيلبسها اعجاز قصار السور .

(ب) صورة صبرى الرجل السمع الذى روى عن شذى شمائله نسيم السحر .

(ج) صورة دار صبرى وقد ازدهر ناديا بزواره من علماء العقول وقد خطر بينهم حافظ وشوقي ومطران .

(١) من أقوال الاستاذ أحمد الزين فى كتاب ديوان اسماعيل صبرى من ٢٥ .

(د) صورة صبرى السياسى الوطنى ، الذى أحاط الزعيم
مصطفى كامل بحبه وتأييده وقد فقد الشباب بفقده نصيرا من
نصراء « رب اللواء » زعيمهم الأول ، وفيما يلي أهم القصائد التى
قيلت فى رثائه فى ذكرى الأربعين :

قصيدة حافظ ابراهيم في رثاء اسماعيل صبرى

تعاك النعاة وحم القدر ولم يفن عنك وعنا الحذر
طوت ذبحة (الصدر) صدر الندى فلم تطو الا سجل العبر
فأسميت تذكر في الغابرين وان قل مثلك فيمن غير
اذا ذكرت سير النابهين فسيرة « صبرى » تجب السير
لقد كنت برا بظل الشباب فلما تقلص كنت الأبر
فلم تستبق نزوة فى الصبا ولم تستح غفوة فى الكبر

★ ★ ★

أهنى الثرى أم أعزى الوزى لقد فاز هذا ، وهذا خسر
أول يوم لعيد الربيع تجف الرياض ويلوى الزهر
ويذبل زهر القريض الثرى ويقفر روض القوافى الفرر

★ ★ ★

رحمت فقد كنت حلو اللسان جلى البيان صدوق الخبر
قليل التعجب جسم الاناة حكيم الورود حكيم الصدر
شمائلك الفرهن الرياض روى عن شداها نسيم السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب فعافى وآوى واغنى وسر
إذا ما وردت لها منهلا وردت نهرا لزيد الخصر

وفكرك في خصبه ثروة
وشعورك كالماء في صفوه
عيون القصائد مثل العيون
وكم لك شكوى هوى أو آسى
هتفت بها مرة في الهجير
وكم كنت تشعل فحم الدجى
فيا ويح قلبك ماذا ألح
أيخفق تحت الدجى وحده

الى أن قال :

زهمت على شهرة طبقت
خلعت الشباب فلم تبكه
وقد ذقت طعم الردى عندهما
فأقسمت أنك أقيته
تمنيت أن لم تعد للحياة
وكم ساعة بين ساع الحياة
فرحت الى أختها شاكيا
ففتشت أثناءها جاهدا
فلم تر فيها على طولها
وما زلت تشكو الى ان أتت

لفكر الأديب (اذا) ما افتقر
وشعرك فيهن مثل الحور
على صفحته تراءى الصور
أها نفثات تذيب الحجر
فكاد يدب اليك الشجر
بأنفاس حب طويل السهر
عليه من الداء حتى انظر
لذكرى أليف سلا أو هجر ؟

وجاه أظل وفضل سهر
وساءك أنك لم تحتضر
أصيب قطارك يوم السفر
لذيذ المناقة إذ يحتضر
ولكن أباهما عليك القدر
سقتك المرار بكأس الضجر
أذاتك منها فكانت أمر
بعيني بصير بعيد النظر
هنيهة صفو خلت من كدر
كما تشتهى ساعة لم تدر

فلا صد تخشاه بعد الوصال ولا ضعف تشكوه بعد الأشر

وصدرك مما عليه انكدر
تفرج عنك كرب الغير
فهل فى المهات بلوغ الوطر
على الدهر ان هو يوما غدر

أريح فؤادك مما ضناه
تمنيتها خطوة للمهات
وها قد خطاها فنلت المنى
صدقت فى الموت نصر الأبي

من قصيدة أحمد شوقي في رثائه

أخلى يدك من الخليل الوافي
ليس النذير على هدى وعاف
دون المصاب بصفوة الألاف
همم العزاء قليلة الأسعاف
في حادثات الدهر غير خفاف
إلا مودات الرجال تلافى
أم ليل عرس أم بساط سلاف
مست حواشيه نقيع زعاف
حتى ظفرت بخلقك المتنافى
طهر المكفن طيب الألفاف
أتراه تحسبها من الأضياف
وتقبلت في أكرم الأكتاف
بالكظم الغيظ الصفوح العافي
يندر العيون حواسد الأكتاف
ولكم نعوش في الرقاب زياف
كرم ومما ضم من أعطاف
وإذا جلال العبقرية ضافى

أجل وإن طال الزمان ووافى
داع إلى حق أهاب بخاشع
ذهب الشباب فلم يكن رزئى به
جلل من الأرزاء فى أمثاله
خفت له العبرات وهى أبية
ولكل ما اتلفت من متكرم
ما أنت يا دنيا أرويا نائم
نعمائك الريحان إلا أنه
ما زلت أصحب فيك خلقا ثابتا
ذهب الذبيح السمح مثل سميه
كم بات يذبح صلته بشكاته
نزلت على سحر السماح ونعره
لجت على الصدر الرحيب وبرحت
حملوا على الأكتاف نور جلاله
وتقللوا النعش الكريم يتيمة
متمايل الأعسواد مما مس من
وإذا جلال الموت واف سابغ



الى أن قال :

وتجرعت ثكل الغدير الصافي
وشى الرياض وصنعة الأفراف
فلقد أعاد بيان عبد مناف
من ذا يقيس بهم بنى الأشراف
أعلمت للقمرين من أسلاف
للموت ليس لها من استئناف
حكم المنية ماله من كافي
أمسى تناديه ذئاب فياضي

فجعت ربي الوادي بواحد أيتها
فقدت بنانا كالربيع مجيدة
ان فاته نسب « الرضى » أبوة
شرف العصامين صنع نفوسهم
قل للمشير الى أبيه وجده
قاضي القضاة جرت عليه قضية
ومصرف الأحكام موكول الى
ومنادم الأملاك تحت قبابهم

قصيدة خليل مطران

شهب تبين فما تؤوب
أرأيت في كأس الطلي
هو ذاك في ليج الدجى
لا فرق بين كبيرها
كل الى أجل وعقبى

فكأنها حيب ينوب
دورا وقد صنعت تصوب
طفو الدرارى والرسيوب
وصغيرها فيما ينوب
كل طالعة وقوب

★ ★ ★

اليوم نجم من نجوم
وثبت به في أوجه
لقى الحقيقة شاعر
أوفى على عدن وما
كم بان يشهدا وقد

الشعر أدركه الفروب
الأسنى فغالتة شعوب
ما غره الوهم الكنوب
هو من بحاسنها غريب
شفت له عنها الغيوب

★ ★ ★

يا خطب اسماعيل صبرى
جزع الحمى لنعيه
واجتاز بحرا من دموع
أى صاحبي لقد قضى

ليس تيلفك الخطوب
وبكساه شبان وشيب
الخلق مشهده الرهيب
استاذنا البر الحبيب

فعدرا - قلاذتنا - وكانت
انى لأذكرك والاسى
عهدا به ضمت فؤادا
اذ بعضنا من غير ما
وبغير قرب بيننا
الشعر الفنا فما

الى أن قال :

با مصر قام العذر ان
وعلى فقيده كالى
مات الأديب وانسه
مات المحامى عن ذمارك
مات الأبي وتحت لين
مات الذى تدعوه داعية
مات الذى ما كان مثـ
مات الذى ما كان فى
مات الذى منظومه
الضارب الأمثال لـ

★ ★ ★

الى أن قال :

فاذهب ابا الشعراء
اما بنوك فعند ظن
ثم عنهم ومقالك العالى
لك فى النهى بعد النوى

زينة الدنيا - شحوب
بين الضلوع له شبيب
واحدا منا الجنوب
نسب الى بعض نسيب
كل الى كل قريب
اختلف العريق ولا الخيب

يعلق مضاجعك الوجيب
تكنين فليكن النحيب
فى كل معنى للأديب
مات قاضيك الأريب
قوله الرأى الصليب
الولاء فيستجيب
هله يذم ولا المغيب
أخلاقه شئ يريب
لأولى النهى سحر خلوب
س له بروعتها ضرب

فخرك ليس ضائره الذهب
النيل أبرار نابوب
وجانبك المهيب
شفق ولكن لا يغيب

فنه الشعرى

يعتبر اسماعيل صبرى أول الشعراء المثقفين فى العهد الحديث ، نال حظا وافرا من الدراسة الأكاديمية بكلية اكس بفرنسا حينما أوفد فى بعثة رسمية إليها عام ١٨٧٤ واكمّل دراسته القانونية بها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٨ ليلتحق بأول درجات السلم القضائى ، واطلع على الأدب الفرنسى آنذاك ، الذى كانت تسوده الرفاهية الباكية التى كان يمثلها لامرتين(١) واخوانه الأرقاء الناعمون . فلذلك تأثر اسماعيل صبرى بذوق المدرسة (اللامرتينية) فى أحسن ما كانت عليه من شعور وتمييز ، وجاء (٢) شعره لطيفا تغلب عليه الرقة والحزن .

كما وأنه ثانى الشعراء الذين طرّقوا الشعر السياسى بعد محمود سامى البارودى باشا فى العهد الحديث كما أنه سار على نهج البارودى أول شاعر فى العهد الحديث أيضا هتف بأمجاد الفراعنة وأشاد بعلومهم وحضارتهم وتفوقهم ، وغنى للأهرام

(١) القونسى دى لامرتين ، شاعر فرنسا العظيم وكان كاتباً وخطيباً سياسياً ومجاهداً فى سبيل الحقوق المهضومة والمدافع عن الحريات فى كل قطر محروم منها ولد ١٧٩٠ ومات ١٨٦٩ .

(٢) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم : ص ٢٤ للكاتب الكبير عباس محمود العقاد .

وأبى الهول ولآثارهم الخالدة ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم في العلم والمعرفة حتى يصلوا مجدهم بأمجاد الفراعنة السابقين جدودهم وحول تيار الكراهة عنهم في عصرنا الحديث ، بعد أن استبعدنا وهم التفسير الخاطيء للدين ، فصببنا جام الكراهية عليهم ، وأخذناهم جميعا بجريرة فرعون واحد طرد موسى وبني اسرائيل من مصر .

ويعد اسماعيل صبرى بحق أحد أقطاب حركة التطور في الشعر العربي الحديث التي طلعت في سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكان رائدها الأول محمود سامى البارودى ، فقد اخرجت الشعر من ظلمات الهاوية التي تردى فيها أكثر من خمسة قرون ، تلفه آكفان الصنعة ، وجذب القرائح وفساد الذوق ، الى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة ثرة ، واستعداد فنى وأدبى متين .

كما واتجهت باسماعيل صبرى موهبته الشعرية وثقافته الأوربية القانونية ، وتكوينه الفنى والأدبى الى رحاب الكلاسيكية ، فبدأ بها شعرنا الحديث طورا جديدا من جلال الصياغة ورنين الموسيقى والاطار الأسلوبى القديم لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزا ، ورغم أنه تمثل القديم ورمز به لعواطفه فى بعض أشعاره إلا أنه احتفظ بشخصيته وأثار به جوانب عصره فرد الى الشعر العربى أساليبه الناصعة التي كادت أن تندثر ، يعبر بها عن الحاضر فى مجالاته المختلفة ، فيسحر بشعره الألباب ويأخذ به مجامع القلوب .

ومع أن اسماعيل صبرى عاش فى عصر البارودى ، ويعد من رواد مدرسته الشعرية ، بل قد تألق نجم البارودى وهو لا يزال

في مهله ، ومع ذلك نحس عنده أنه لا يجري في أثره ، فقد كانه
من طبيعتين مختلفتين .

فالبارودي كان يعنى بمعارضة القدماء ، ويحاول أن يتخذ
لنفسه اطارهم الجزل الرائع ، وان يعيد للشعر سيرته القديمة من
خلال الأسلوب وفخامته ، ولذلك لم يكن في قرص أشعاره تاركا
نفسه على سجيتها ، بل يأخذها بمحاكاة القدماء ويعلم ذلك
اعلانا ، وما زال يحاكيهم حتى أطرده له أسلوب قوى رائع يلائم فيه
بين القديم والجديد . فهو يحافظ على الصياغة التقليدية والفصاحة
والجزالة والروثق والرصانة ، وهو يجدد فيضمن شعره خواطر
نفسه وشجونها وأحداث بيئته وشئونها ، وبذلك استأنف
البارودي لشعرنا العربي حياته الخصبة القديمة وهي حياة تقوم
على التمسك بالأصول التقليدية من جهة - (فالبارودي يبقى عليها
بل لا ينحرف عنها لا في وزن ولا صياغة ولفظ) - وتقوم من جهة
أخرى على تصوير البارودي لذات نفسه وعصره والظروف الكثيرة
المختلفة التي أحاطت به وأثرت في شعره وقد تبعه حافظ وشوقي
فسارا في نفس الاتجاه .

أما اسماعيل صبرى فبدأ حياته مقلدا ، ولكن لم يكده يتقدم
به من الشباب حتى ذهب الى فرنسا في بعثة ، فدرس القانون وعاد
من بعثته ليتقلب في المناصب القضائية المختلفة حتى صار وكيلا
لوزارة الحقانية (العدل) ، فحياته كانت سهلة ميسرة ، وانحرف
منذ نضجه الفني عن طريق البارودي وصاحبه شوقي وحافظ ،
فلم يكن يعنى مثلهما ومثل أستاذهما لمحاكاة القدماء بل كان يرسل
نفسه على سجيتها ، فالشعر ينبغى أن يكون صورة لصاحبه قبل
أن يكون صورة القدماء ، وينبغى أن يعبر عن حياته وأفكاره بدون
معوقات من ألفاظ بيانية أو أساليب قديمة ، وحسب الشاعر أن

ينظم البيتين والأبيات القليلة ، ويسجل خاطرة أو لمحة أو معنى من المعاني ، ولذلك لم يكن من أصحاب القصائد الطوال ، وإنما كان من أصحاب اللقطات والقصائد القصار .

وكان شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحوير فيه . حتى إذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه . ورغم أن صبرى تفكه في شعره بعض الشيء ولكنه لم يعرف الفكاهة الخالصة التي تنتهي إلى الضحك ، لا تتجاوزها إلى شيء آخر ، وإنما عرف منه الفكاهة التي تصدر عن النفوس المحزونة الكئيبة ، فتدفع إلى الضحك وإلى الإغراق فيه ، ولكنها تعقب مرارة مستقرة مؤلمة . لأن حياة هذا الشاعر الرقيق الأنيق المترف لم تخل من صراع صامت ، فيه شيء من العنف الأليم بين نفس قوية ذكية ، وأسباب للرقى والسؤدد لا تكفى بالنبوغ والتوثب ، وإنما تريد إليها خصالا أخرى من النفاق والمصانعة ، والتقرب إلى الحكام وأنصار الاحتلال البريطاني الجاثم بكابوسه على البلاد في ذلك الحين ، ولم يكن من طبيعة الشاعر الحر الأبى أن يتصيف بهذه الخصال . فقد تنقل في المناصب القضائية - كما ذكرنا سابقا - حتى إذا انتهى إلى وكالة وزارة العدل ، وأصبح تجاوز هذا المنصب في ذلك الوقت رهينا بشيء آخر غير الكفاءة والامتياز !! وقف الرجل عنده ولم يتجاوزها ، ونظر ذات يوم فرأى أترابه وولدانه يصاعدون من حوله إلى مناصب الوزارة ، وفيهم من كان دونه علما وثقافة وخبرة ، ولعل نفسه أحست بعض الميل إلى هذا الصعود ولكن الأسباب لم تمد له ، أو مدت إليه فلم يستطع أن يأخذ بها إباء وحياء . كما كانت هناك أسباب أخرى تدفع للأسى وهي تنكر ذوى قرباه رغم ما مد لهم من أسباب الوفاء ومهما يكن من شيء فقد استسلم صبرى للشعر ، ولكن في قصد واعتدال . فلم يتخذ صناعة ولم يتخذ أداة للتفوق به على غيره ، ولم يتوسل

به للكسب أو ابتغاء غرض ، ولم يتوسل به للرقى ، ولكنه مع ذلك مدح ورثى وجامل مؤديا للحق أو مشاركا في الفن .

أهم الأغراض التي قال فيها الشعر :

أجاد صبرى في الحب والموت والوطن وقصر فيما دونها .

١ - الحب :

فالحب هو أقوى العواطف وأقربها الى القلوب ، بل يقول الفلاسفة أنه أساس كل عاطفة حتى البغض ، ولقد كانت هذه العاطفة العامل الأكبر في شاعرية هذا الشاعر الفذ ، فأوحت اليه بالأبواب الخالدة التي سوف يتمثل الناس بها ، لأنها كانت في صدره عاطفة قوية راسخة خالصة من كل الشوائب ، بل كانت شاملة لكل ما تنطوي عليه من المعاني الكثيرة من المحبة الى الوداد الى التسامح والاخلاص والوفاء .

٢ - الموت :

حذق اسماعيل صبرى الى الموت مرارا ، فنظر فيه كثيرا واستوحاه الحكمة الرائعة ، بكلتا عينيه فكان تارة ينظر اليه قلقا وجلا فيقول :

أتزودت من ضياء الببور نيلال كثيفة الديجور

وتارة ينظر اليه مرحبا مطمئنا فيقول :

**يا موت ها أنك فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى**

وقد رسمت هذه العاطفة المزدوجة ، تلك الابتسامة الحزينة

على محياه حتى كأن الناظرين اليه ، يخالونها زفرة وقفت عند
شفتيه ، ودمعة جمدت في عينيه .

٣ - الوطن :

وقد تجلت عاطفته الوطنية بأجلى بيان ، فيما نظمه في مصر
ورجالها المخلصين ، وزعمائها الميامين ، وما نظمه في أمجاد مصر
الخالدة ، وعزيمة أبنائها وعظمتهم منذ آلاف السنين وكان يدعو
المصريين الى اقتفاء آثارهم .

مستنجداً من بنى مصرأولى شمم اذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا

وقد وصف آثار مصر الرائعة ، وصفا تتمشى العظمة في
جميع أجزائه ، ولا يتمالك من يقرؤها عن هزة اعجاب تدفعه الى
السير قدما في طلب العلا واقتفاء آثار الأجداد .

أما أثر تلك العوامل الثلاثة في شعره ، فكان أطيّب الأثر ،
أكسبته من روعة المعاني ورقة العواطف جمالا زاد سناه حسن
الديباجة وفصاحة اللفظ ، فكانت السلاسة والعدوبة والانسجام
وسلامة الذوق من العوامل اللفظية فيما نظمه من القصائد وما وضعه
من الأغاني ، التي كانت مصدر - البهجة والطرب أيام كان يتغنى
الشعب بها في مجالس أنسه وطربه .

وهكذا فالحب والموت والوطن . هي العوامل التي كانت
تحرك فيه الشعور الفياض وتنطقه بالحكمة الرائعة وتثير في صدره
الحماسة الشريفة .

وقد كانوا يلقبونه بلقب « أستاذ الشعراء » أنا وأنا « شيخ
الشعراء » لأنه كان المثال المحتذى والعلم يهتدى به ، ولمكانته
الاجتماعية ومركزه القضائي المرموق ، ولامتميازه وتفردّه بالمناقب

السامية والشمال الصافية ، وبعده عن الصفائر وسموه عن
الدنيا !!!

شعره الوصفى :

لم يصلنا من شعره فى الوصف الا مقطوعات قليلة جدا ،
وهذا غريب من شاعر رقيق امتاز بخفة الروح ورقة الحس ،
كانه لم يولد بالقاهرة على ضفاف النيل ، وتنقل بين ربوعه
وأرباضه فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهدته ما يبهر الطرف
فى الاصباح والامساء . تشرق عليه الشمس فتنبعث الألوان
زاهية ترقص على أمواجه وتختال بين الظلال من خلال النخيل
الباسق وتغيب عنه فتسبح العين فى سحب رقيقة تحيط بقرص
الشمس الحمراء وهى تحتضر مع المغيب ، فتعيش النفس فى سحر
مثير ووحى جميل . . . !

وتمتد الصحراء المنبسطة الى غير نهاية على شطآن النيل ،
وتنعكس عليها أنوار الشمس ، وتضيع فى طياتها ألوان السراب
فتبدوا كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذى يغطى أرض مصر فى
رفق ودعة ، وسحر وفتنة . أو كثيرا ما تحفل الصحراء من جليل
الآثار وعظيم المعابد ؟

ولبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة ، ويتلح
ما يحمل اليه هذا النهر ، فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل
أبدا بين مد وجزر ، يقبل أقدام مصر ويرتد عنها ليعود اليها ،
مسحورا مفتونا . . وهذا كله مساعد للوحى والالهام . كل هذه
المشاهد الخلابة ، باعثة على الشعر ، جديرة بالخيال ، خللت منذ
فجر الانسانية وشباب الدنيا شعراء وكتابا وفلاسفة وفنانين
كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة الانسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديرة بأن توحى الى الشاعر المصرى المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز بالقديم ، وفيها جمال وفتنة تحركان النشوة فى النفس والموسيقى فى الشعر والفتنة فى القول ، ولكنها مع ذلك لم تبعث فى شاعرنا اسماعيل صبرى الا أبيات متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش فى ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية الا كما ينقش الأزميل فى الماء أو القلم فى الصحراء !!

ومع أنه تنقل فى عمله بعض التنقلات المحدودة ، تبعاً لظروف مناصبه القضائية والادارية التى توزعت عليها مسئولياته ، أثناء عمله بوزارة العدل ، ولكنه كان يستقر أغلب أوقاته بالقاهرة وفيها قصره المنيف ، وناديه الأدبى الوثير ، ومجمع الأصدقاء والخلان ، فمر بالأزبكية والخليج المصرى ، ورأى الماء والشجر يتعانقان ، ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواجه - ألم يثر فيه ذلك أية قافية ؟

حتى يخيل لقارىء الديوان أن شاعره عاش فى المقهى أو فى منزل الامام محمد عبده ، أو أخلد الى بيته أو دار الكتب ! فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف ماء من النيل ، أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن فى طول فارغ وقامة فاتنة ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشهد الأشرعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترسم أبرع اللوحات الطبيعية وكأنه لم يسهر ليلة على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات المآذن ، وهى كالمسلات المزروعة فى قلب الأحياء ينعكس عليها الضياء وتنبثق من خلاياها صيحات الايمان فى جوف الليل .

كل ذلك لم يكن لصبرى اليه من سبيل ، كان الطبيعة لا تحدثه ولا يحدثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين يناضل عن عيشهم بلسانه ، يهنئ البعض ويجمال البعض ، أما هؤلاء الذين

كانوا يقعون فى ساحات الموت من أصدقائه ومن الأقداد من بنى
قومه فكان يبكى لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا فيه وصالوا
فيترحم عليهم ويسجل مآثرهم ، ثم ينبرى الى نفسه فيجد فى
الموت مهتدا لا يبعد أن يقرع الباب وما هو الا أن يستجيب
النداء ، فهى سنة الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) وقال الشاعر حافظ ابراهيم فيه :

(صبرى) استثرت دفائنى وهزرتنى
وأريتنى الإبداع كيف ينساق

فابحت لى شكوى الهوى وسبقتنى
فى مدح (عباس) ومثلك يسبق

وفى سنة ١٩١٣ قال فى شوقى وصبرى وهو يهنئ خليل
مطران :

وتلونا آيات شوقى وصبرى فرأينا ما يبهز الأفهاما
ملا الشرق حكمة وأقاما فى ثنايا النفوس أنى أقاما
غنيا المشرقين ما ترك الأفلا ك حيرى وأذهل الأجراما
وأعادا عهد الرشيد لعبا س فكانا يراعه والحساما

★ ★ ★

وقد نشر اسماعيل صبرى بواكير شعره فى مدح الخديو
اسماعيل وهو طالب بمدرسة الادارة بالعدد رقم ٢٠ من السنة

(١) من كتاب شاعر الشعب ص ١١٢ تأليف الدكتور سامى الدعان .

الأولى (١٨٧٠) بمجلة (روضة المدارس) (١) ، فى قصيدة
مطلعها (٢) .

سفرت فلاح لنا هلال سعرد ونهى الغرام بقلبي العمود

وقصيدة أخرى بالعدد رقم ٥ من السنة الثانية (١٨٧١) قال
فى مطلعها (٣) .

**أغررتك لغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در**

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية استهلها بقوله (٤) :

**لا والهوى العذرى والوجد عدل عنولى فيك لا يجدى
انى مع الصمد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد**

وتعتبر مجلة روضة المدارس من المجلات الأدبية الرائدة
فى الربع الأخير من القرن الماضى ، فقد شجعت نبهاء التلاميذ بنشر
قصائدهم المبكرة على صفحاتها ومنهم « الشاب النجيب اسماعيل
أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة (وقتذاك) وكان ينشر
صبرى قصائده أيضا فى جريدة الوقائع والمؤيد . وكان يذيل
كثيرا من قصائده بتوقيع الشاعر المصرى القديم بنتاؤر .

(١) مجلة روضة المدارس أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان
وزيرا للمعارف ، وهى من أجل أعماله .

(٢) غاية شوال سنة ١٢٨٧ هـ .

(٣) ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ .

(٤) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ .

(٥) أنظر ص ٢٤٧ . كتاب عصر اسماعيل جزء ١ لعبد الرحمن الرافعى .

أهم المؤثرات التي تأثر بها :

أولاً : قراءته في سن مبكرة ديوان ابن الغارض ، كما كان معجباً بشعر البحتري ، ملماً لقراءته ، فضلاً له على غيره من الشعراء ، وقد روى عنه أنه حين قرأ ديوان البحتري ، خيل له أنه لم يقرأ شعراً قبله ولذلك يعقد الدارسون مقارنة بين قصيدة البحتري في الخليفة المتوكل والتي مطلعها :

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر

والأم في كمد عليك وأعذر

ومن قصيدة اسماعيل صبرى في الخديوي عباس حلمي الثاني التي يقول فيها :

بعلاك يختال الزمان تبخترا وبقدرتك يتيه تكبيرا

وقد ذهب البعض الى حد استقصاء المعاني والألفاظ في شعره في مقارنة له بشعر البحتري وابن الفارض ، ومع ذلك فإننا حين نقرأ شعر اسماعيل صبرى نجد أنه يذكرنا في أماكن مختلفة بشعر الشريف الرضي في عفته وسماحته ، والبهاء زهير في خفة روحه وسهولته ، وابن القارض في صفاته وصدقه وشفافيته ، والبحتري في ايقاعه الموسيقي وجماله ورقته وليس معنى هذا أننا نذهب الى البحث عن شاعرية اسماعيل صبرى في هؤلاء من شعراء العرب وفي لامارتين شاعر فرنسا الكبير " وانما تقف كما وقف الدكتور محمد مندور عند حد تسجيل التجاوب بينه وبينهم وذلك بقول

« تأثيرهم فيه لا يعدو ان يكون قد عزز اتجاهات نفسه وساء

على نمو البلرة التي فطرت فيه » .

ثانياً : تأثر شعره الوطني بالنشاط السياسي العظيم الذي قام به الزعيم الوطني الشاب مصطفى كامل ، وتابعه منذ نشأته وهو طالب بمدرسة الحقوق الخديوية يرتاد النوادي الأدبية والسياسية حتى سطوع نجمه في سماء الحياة السياسية ووفاته في ريعان شبابه .

ثالثاً : ارتياده الصالونات الأدبية التي تعقد في منازل الأميرة اسكندرية أفيرينيو بالاسكندرية وصالون الأدبية الكبيرة ماري خير زيادة (مي) بالقاهرة ، ما عدا صالون الأميرة نازلي فاضل فلم يتصل به . لأن اللورد كرومر كان من المترددين عليه ، وخشى أن يرتاده فيظن به أنه يتقرب للاحتلال ؟ وهو الأمر الذي يتجنبه ويحاربه ؟

آراء النقاد في الفن الشعري لاسماعيل صبرى

قال الأستاذ الكبير المرحوم عباس العقاد (١) فى شعر صبرى: « ان شعره لطيف لاتعمل فيه ، ولكنه كذلك لاقوة فيه ولا حرارة ، وان شئت فقل : أن أدب الرجل كان أدب الذوق ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض وأدب الاصطلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار الجسور ، وضرب مثلا على أن صبرى ناعم يمثل الترف فى حزنه وحماسته وعاطفته ، وأنه تنقصه الحرارة والانفعال والعاطفة بقوله « اذا قال شاعر أن عزيمة البطل الممدوح تصدم الصخر الأشم فتهدده وتمهده ، قال صبرى أن عزيمة بطله تلامس الصخر فتنبت فيه الأزهار . »

وعزيمة ميمونة لولا مست صغرا لعاد الصخر روضا ازهرا

ويقول بعض النقاد أن صبرى شاعر مقلد ، لم يوهب تلك الملكة الشعاعية المبدعة المبتكرة وأنه كان قصير النفس ، لا يستطيع نظم القصائد الطويلة ، وأنه لم يكن شاعرا محترفا انما كان يقول الشعر لخطرات ترد على ذهنه . وقد وصف الشاعر (٢) الغالد

(١) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٣٤ بقلم عباس محمود العقاد .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى باشراف الاستاذ أحمد الزين .

**خليل مطران الطريقة الفنية التي يجرى فيها اسماعيل صبرى
فى نظمه فقال :**

« أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدهما
أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل
لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه ، فالغالب فى أمره أن يقول الشعر
متمشيا . وربما قاله فى حضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين
حين وحين أنه تمثل ما تنطق لفظة « ايه مستطيلة » . ينظم المعنى
الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على
هذا المقدار الا حيث يقصد قصيدة وهو نادر .

شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى اذا
استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم
نسبه ، وهكذا يمر به الان بعد الان فيجيش فى صدره الشعر فيرسل
ببيتيه ، كما يطلق أنسان زوجى الطائر فى الفضاء فيذهبان فيه
ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمة ، شادين على توقيع العروض
الى أن يتواريا وينقطع نغمهما . . . ذلك هو الشعر للشعر .

وقال عنه المرحوم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى (١) :

«ولم يكن فى مصر مما يحس ذوق البيان ، ويميز أقدار الالفاظ
بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وابراهيم المويلحى
والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعا . . . والبارودى يذوق
بالسليقة ، وصبرى بالعاطفة ، والمويلحى بالظرف ، والشيخ
محمد عبده بالبصيرة النافذة . . . وذلك شئ ركبته الله فى طبيعة
صبرى ولم يحصله بالدرس أكبر مما حصله بالحس ، ومن أجله

(١) عدد المقتطف مايو سنة ١٩٢٣ .

كان يفضل البحترى على غيره «ويقول الشاعر أحمد محرم عنه (١)»: «
وصبرى منذ القديم شاعر مقل ، فهو لا يستطيع المطولات ،
ولا يكاد يجيدها وقد نضجت شاعريته فأبدع في مواضع كثيرة ،
ولكنه بقي الشاعر المحدود . والفنان الذى يأخذ من الفن ما يعجبه .
ويأبى أن يعطيه ما يحبه وما يرضاه » .

« فصبرى شاعر مقل ، لا يكاد يجيد المطولات ، وذلك لأنه لم
يحترف الشعر وان أراد أن يكون شاعرا معروفا » .

ولم يكن شعر صبرى أول عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر
يحدث أثرا يذكر في عالم الشعر وأرى أن صبرى على الرغم مما أسبغ
عليه معاصروه من ثناء ومدح ، وما أطروا به شعره - ولا سيما ذلك
الذى قاله بعد عودته من فرنسا - وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقبونه
تارة بالرئيس وتارة بشيخ الشعراء ، من أنهم أثنوا على صدق
عاطفته ودقة معانيه ورقتها لم يأت بجديد يذكر في عالم الشعر ،
وأنه فهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى وان كان أجود
منه لفظا وأحسن معنى وأفتن ديباجة) .

ونحن لانستطيع أن نقر الشاعر أحمد محرم على نقده هذا
لشعر صبرى فان فيه لغمطا وأن فيه لكثيرا من الانتفاص، ولا نوافق
في أنه كان يفهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى لأن ذلك
فيه انكار كبير لموهبته وشاعريته وعنت بالغ برجل كان امام الشعراء
وقبلتهم في عهده .

ولنسمع الآن رأى عميد الأدب العربى والكاتب المبدع الكبير
الدكتور طه حسين فى شعر صبرى وشاعريته (فى مقدمته لديوان
اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨) :

(١) مجلة أبولو سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

« ان نشر هذا الديوان يرد الى التاريخ الأدبي فصلا من فصوله القيمة ، وما أحب أن يظن بي الغلو في ذلك أو الاسراف ، فقد أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعرا ممتازا ، وعلى أنه كان علما من أعلام الشعر فيه ، ولم يكن هذا الجيل يذكر الشعراء الممتازين الا ذكر معهم صبرى ، فكانت الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث اذا ذكرت لم تخل من ذكره ، وقد يكون الجيل مصيبا وقد يكون مخطئا ، ولكن الحقيقة الواقعة أنه كان يضع صبرى فى هذه الطبقة ، لا يختلف فى ذلك ولا يجادل فيه ، (١) .

وقد ذكر فى مقدمته الطويلة للديوان ، ان اسماعيل صبرى بدأ شعره مصطنعا ألوان البديع مثلما كان يصطنعه الشعراء فى عصره ، متكلفا أحيانا ، معتدلا أحيانا أخرى ، ومع ذلك فقد امتاز شعره بخفة الروح ورقة الحس ودقة الخيال وامتياز الطبع وحدة المزاج وارتفاع الذوق .

وعن شعره السياسى ، فانه يمثل الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ ابراهيم وأحمد شوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله ، هذه الوطنية الطامحة الى مثل أعلى غير محدود ، وساق بعض الأبيات (تدليلا على ذلك) من قصائده الوطنية .



وقد غصت جميع الكتب التى تعنى بالأدب والشعر ، سواء كانت كتب عامة أو مدرسية باعتراف أغلب الشعراء (الذين عاصروه) له بالصدارة وبصفة خاصة أعلامهم فى العهد الحديث وهم شوقى وحافظ ومطران ، وذلك واضح فى مراثيهم له فى ذكرى الأربعين ، والاعتراف سيد الأدلة (كما يقولون) .

(١) مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع فى سنة ١٩٢٨ .

وقد أتاحت الظروف لأحمد شوقي أن يتصل بأستاذه الكبير في وقت مبكر ، وأن يتردد على داره التي كانت منتجعا لكثير من شعراء عصره ، منذ أن كان موظفاً في قلم السكرتارية بقصر الخديوى ، يعرض شعره على أستاذه « فيبصره بكل غميمة يجدها فيه ، من لفظة قلقة ، أو معنى متهافت أو صورة سوقية ، ومازال شوقي يعالج شعره تحت اشراف استاذه ؛ حتى استوت عنده ملكة الفن ، ودان له سلطان القريض وأصبح لا يشعر بحاجة الى مراجعة أستاذه » .

ولا يؤثر ذلك في شهرة شوقي بعد ذلك وبلوغه شأواً عالياً في مضمار الشعر حتى غداً أعظم شعراء مصر بل أميرهم في العهد الحديث .

وقال عنه انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام

كانت القوافي تجول في خاطره فتصغى اذنه لحفيفها ، فيوقع نغمها ايقاعاً شائقاً .

واذا ما ذكر اليوم أو غداً اسم صبرى في عالم الأدب ، وجدناه كالشمس التي تترك وراءها شفقاً ذهبياً ، تاركاً أشعة من رواء المعنى وصفاء المبني ، ولكنه الشاعر الذي لا يبهرك نور شعره ببريق خاطف يؤذى عينيك ، بل يبسط عليك من على مهل فيشمك بهالة من اللمعان لذلك لا تجد في شعره ما قد نجده في شعر غيره من التعب والعناء - لأنه ما تكلف نظم الشعر ، بل كان كلما هزته عاطفة ، يجود بمنظومة ربما لا تجاوز البيتين كالشجرة الناضجة الثمر تسقط ثمرة كلما هزها الهواء .

وقال عنه أيضاً : ان شعره كالماساة الصافية الماء الظاهرة اللالاء السليمة من كل كدر وعيب ، ينسينا جمالها عناء من قطعها وصقلها

فنحن نقف عند جماله ناسين الشاعر وما لقي من عناء في تصفية شعره ، وتخليص نظمه من كل شائبة « (١) » .

ويقول أحمد أمين في شعره : (٢)

كان يفار على شعره غيرته على عرضه ، لقد كان في عرضه يحرص على أن يطيب في المحافل نشره ويخلد في الصحائف ذكره ويأتي بالمكرمات يملأ مسامع الدهر وتتأقلمها ألسنة الشكر، يترفع عن النقيصه ، ويتصون عن الدنيا، وهو في شعره مثله في عرضه، يخاف العثار ويرهب النقد ويتحرج ان يأتي بغير ما هو الأولى ، وأن يصدر عنه ما ليس بالأعلى ، ويعد البيت يصدر عنه كالعقل المشهور ، والأثر المأثور ، يجب الحيلة له والتوفر على الاحسان اليه . دعاه ذلك أن يترت في شعره ويتمهل في صوغه ، يغوص على المعاني كالغوص على اللالي ، ثم لا يقنع بأية لؤلؤة بل لا يرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها تعب في أن يتخير لها مسلكها ووقفها ، حتى تخرج كاملة ، يعجب بها الذوق الراقى والفنان الخبير ، فهو يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف واللفظ القوى للمعنى القوى ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق .

ويقول في موضع آخر :

« فما كنا نلقبه الا بلقب (أستاذ شعرائنا) أو (شيخ شعرائنا) لأنه كان مثالا يحتذى وعلمًا به يهتدى (٣) » .

(١) في مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٢٨ .

(٢) في مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٢٨ .

(٣) كان اسماعيل صبرى مشهورا بلقب شيخ الشعراء - اعلام العرب - أحمد

شوقي تأليف د. ماهر حسن فهمى ص ١١٥ .

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات فيقول في كتابه وحى الرسالة

جزء (١) عن صبرى :

« أما صباغة حافظ إبراهيم فهي موهبته الأولى وهو فى ذلك
ثانى الخمسة ، البارودى وحافظ وشوقى وصبرى ومطران ، الذين
تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر وتحللت على صفتهم بلاغة
القصيد ، »

الباب الثاني

الشعر الوطني والسياسي

- تنديدهم بالظلم والاستعمار الايطالي
- الدعوة الى مجد الوطن
- علاقة اسماعيل صبري بالزعيم الشاب مصطفى كامل
- تمثال مصطفى كامل
- حادثة دثشواي
- دعاياته السياسية ،

شعره الوطنى والسياسى

كان اسماعيل صبرى شاعرا وطنيا من الطراز الأول ، فهو فى شعره الوطنى يصدر عن شعور صادق غير متكلف ، وشعور طبيعى يرد من روحه المتشعبة بحب بلاده ، وتقدير كل مخلص فى الجهاد لأجلها ، ورغم أنه كان مقيدا بقيود الوظيفة ويشغل منصبا من مناصب القضاء - ومناصب القضاء على ما نعلم من المناصب التى تلزم أصحابها تقاليد خاصة ، وقواعد معينة من السلوك ، أكثر مما تلزمهم بها أنواع المناصب الأخرى . فالقضى محدود الحركات والصلات ومحروم من كثير من نواحي الحرية الشخصية التى يتمتع بها باقى الموظفين ، وبالنسبة لما لمنصب القضاء من وقار واحترام ، فان القضاة يؤثرون التضحية ببعض حرياتهم على أن يندمجوا فى المجتمعات العامة فيكونوا ماثارا للشبهة أو الاشاعة لذلك لم يخض اسماعيل صبرى غمار السياسة كما خاضها حافظ وشوقي ، وان لم يقل عنهما وطنية ، ينم عنها ما قاله فى بعض الحوادث التى هزت مشاعره هذا عنيفا فلم يجد من القول بدا .

والملاحظ فى شعره السياسى أنه مدح الخديويين جميعا اسماعيل وتوفيق وعباس وحلمى وحسين كامل فقط ، ولم يمدح السلطان عبد الحميد أو سواء من الأتراك بينما نلاحظ أن كثيرا من شعراء المدرسة التقليدية الحديثة مدحوا السلطان عبد الحميد

أمثال حافظ وشوقي وعبد المطلب ولسنا نرى أن امتناعه عن مدح عبد الحميد راجع الى خشيته من الانجليز وهو الموظف الكبير فى الحكومة المصرية التى تسيطر انجلترا على شئونها ، والتى كانت تسعى سعيا حثيثا لقطع الصلة بينها وبين تركيا حتى يخلو لها الجو ، وتثبت أقدامها فى وادى النيل .

وقد عرف عنه طيلة حياته ، أنه كان موظفا أبيا ووطنيا معتادا بذاته . ووطنيته صادرة عن جذور عميقة فى تكوينه ، فهو لم يخش الانجليز ولم يسع للتقرب اليهم . عزوفا عن المناصب الكبيرة اذا كان سبيله اليها التنكر لمبادئه الوطنية ، وليس أدل على ذلك أنه يوم كانت دار السفارة البريطانية مقصد الكبراء والعظماء ، لم يفكر يوما فى زيارتها ، ولا تلبية لدعوة الحاكم الانجليزى الأعلى للبلاد آنذاك وهو اللورد كرومر ، الذى ظالما استماله الى زيارته ليكسبه الى صف المناصرين للاحتلال .

ورغم ان اسماعيل صبرى كان طموحا الى المجد ، ويشعر أنه مغموط الحق وأن من هم دونه ثقافة ومناقب قد وصلوا الى مناصب الحكم ، فقد أبى أن يصل الى هذه المناصب عن طريق لايتفق مع علو نفسه ، ونبل خلقه .

وقال عنه أحمد الزين :

« وقد قيل له لما استعصم وأبى زيارة اللورد كرومر ، لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسا للوزراء قال : وما تفيدنى رئاسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وارضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه » .

قصيدته في خلع السلطان عبد الحميد

« والذي لاشك فيه أنه لم يكن راضيا عن حكم عبد الحميد واستبداده ، وكان ينظر الى مصر وأهلها في الاستقلال نظرة قومية. فلا يمدح الا أمراءها الذين تولوا الملك ، شأن الرجل المستنير الراغب في نهضة بلاده ، مستقلة عن كل نير أجنبي والبرهان على ذلك قوله بمناسبة الانقلاب العثماني وخلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس سنة ١٩٠٩ في قصيدة مطلعها » :

يا ناظر الترك قد فارت مراجلهم

بين الدروب وفي عرض الميادين

قل للبراكين كفى نحن في شغل

ذا اليوم عنك ببركان البراكين

هل الجبال الرواسي عندها خبر

بما تصدع من شمم العرائين

وهل رأى النسر شيئا في السماء حكى

ماهر يلذ من بأس الشواهين

قالوا :

لقد خسر من صرح العلاء وهوى

ذو السططين ورب الكاف والنون

اهول به صيحة في الكون قاصفة

تزلزل الأرض من حين الى حين

وتقشعر لها التيجان من فزع

فوق العروش على هام الخواقين

تا لله ان صدقوا في قولهم كذبت

القباب ذو الملك من عز وتمكين

ثم يعتبر ذلك عظة بالغة لكل حاكم مستبد ، فيقول لعبد الحميد :

(عبد الحميد) سيحصى ما صنعت غدا

من الآثام ويلقى في الموازين

ان يرجح الخير - نعم الخير من عمل

دخلت في زمرة الغر الميامين

أو يغلب الشر - لا كانت عصابته

عددت في صرحه أقوى الأساطين

ان لم تكن - لا ثناك الدهر عن أمه

شيخ السلاطين كن شيخ الفراعين

لا يرهقنك حكم الناس فهو غدا

مستأنف عند سلطان السلاطين

ثم يعود اليه ذاكرا أفضاله

وملبس القوم ثوب العز والهون

سر الملائك أو سر الشياطين

يا مقفر الملك الا من جلالته

وجاعل الأمر والأحكام بينهم

كما لا نراه يهمل ويكبر ، حين تعلن تركيا الدستور في سنة

١٩٠٨ ، فما الذي يعود على مصر من ذلك ، اذا لم تنل هي الدستور

وحكم الشورى ؟ فليست مصر في نظره مقاطعة عثمانية ، حتى

ينالها ما نال تركيا ، ولكنها محكومة حكما غريبا ، تتنازعه

سلطان ، وأهلها يعانون الاستبداد والبغى .

لذلك كان شعره في هذه المناسبة استنهاضا للأمة المصرية

للتشبه بالأمة التركية في المطالبة بالحكم النيابي .

تلك المواقف في أسنى مجالها

بين البرية تضليلا وتمويهها

ان ينطق الحق بالشكوى ويبيديها

يد وان طال في بطل تماديها

يا مصر سيري على آثارهم وقفى

لا يؤيسنك ما قالوا وما كتبوا

ان يمنعوا الناس من قول فما منعوا

الحق أكبر من أن تستبد به

الى المفاخر نهجا وهو هاديتها
متن الفخار وكان الجد حاديتها
في القصد حين رأت كثيرا أعاديتها
نزلت ثم - على مصر وأهلها
من قبلنا الترك في أوطانهم فيها
وفي ذراك - باذن الله - موحيا

ما ضيع الله ظلما أمة نهجت
فقلدوا الأمة الكبرى وقد ركبت
تماسكت وهي شتى فهي واحدة
يا آية الفخر هلا تنزلين - كما
كيما تجر ذيولا منك جررها
(يا عابدين) لأنت اليوم مصنها

كما لم يكن اسماعيل صبرى راضيا أيضا عن الاحتلال البتة ،
رغم أنه لم يفصح عن ذلك علانية في قصائده ، وان دلت مواقفه
العديدة على الوطنية المضطربة بين جوانحه وان لم يعلن عداؤه
لانجلترا سافرا فاننا كذلك لا نستطيع أن نمسك عليه أى سقطة
في شعره الوطنى ، أو منحرف انحرف اليه كما انحرف غيره من
الشعراء فى مدح الدولة المحتلة أو التزلف لها !!!

تنديده بالظلم والاستعمار الايطالى

منذ ان بدأت أوروبا السعى الى اقتسام افريقيا ، ورأت ايطاليا أن انجلترا وفرنسا صارتا صاحبتى النفوذ فى مصر وتونس ، قويت أطماعها فى طرابلس ولم تأت سنة ١٩١١ حتى أغارت عليها تريد انتزاعها من تركيا ، ولما نشبت الحرب ، قال الشاعر قصيدته التالية يندد فيها باعتداء ايطاليا على طرابلس (ليبيا) ويندد بما فعلته من الغدر ونقض العهود والمواثيق .

ثم يندد بالامتيازات الأجنبية التى منحتها الأمم العربية للمستعمرين .

راقبى الله أمة الطليان
وتسنت غارب الطغيان
من بحرب مشبوبة النيران
مد جهارا وذمة الجيران
سلموا من دناءة الاصفان
قوم هبوا للتأر للاوطسان

بعض هذا الجفاء والعدوان
قد ملأت الفضاء غدرا وجهالا
وبعثت السفين ترمى طرابلس
تخرق البحر والمواثيق والعهد
سيرتها أضغان قوم لقوم
من رآها تجرى توهم ان الـ

الى ان قال :

ت عزيزا بالرجل والفرسان
مد فنامت جيرانهم فى امان

ليست الحرب للعدو الذى با
انما الحرب للألى حفظوا العهد

وأباحوا أبوابهم حاميها
وأنالوهم حقوق بنيهم
ويحرم ما لصنعهم أبطر القو
ولماذا تمخض السهم عن حر
منح قد بذر في شر أيد
هكذا فلتك المروءات في عصم

ت لمن أهمهم من الضيفان
فعل أهل المعروف باللهفان
م فعقوا ما كان من احسان
ب لظاها يشوى الوجوه عوان
كن مذكن منبت الكفران
ر البهاليل من بني الرومان

وله قصيدة أخرى قالها في سنة ١٩١١ يذكر الإيطاليين
بمصرع الدولة الرومانية في ررما ، حين طغوا وغرهم المجد
والسلطان واتساع الملك فظلموا وبغوا حتى زالت دولتهم وقال في
مطلعها :

يا بنت روما لا تلومي كما
دفنت عدل الله في أرضه
أهلك قوم يبحثون الدمى
لابدع أن طاروا بالباهم
هذي طرابلس وأبناؤها الشجـ

كانت أثينا بين قيل وقال
فاستوثقى من شر ذاك المال
ويزجرون الطير طير الخيال
وأصبحوا من غيهم في خيال
عان يزجون صفوف القتال

الى ان قال :

حلمت يا ليث ولما تشب
في يدك المنجل فاحصد به

فازار فقد حان وضوح الهلال
أعمار أقوام طفوا في الضلال

وترى الشاعر فيما قاله في حرب (طرابلس ايطاليا) لا يصدر
عن عاطفة دينية حادة كما يصدر شوقي مثلا ، وكما كان يشعر
كثيرون من شعراء ذلك الجيل - وانما كان ينظر الى هذه الحادثة
نظرة انسانية ، فيها اعتداء قوى مدجج بالسلاح ، على ضعيف
أعزل ، وفيها تنكر للمثل العليا الانسانية وفي هذه الآبيات
يتسامى الشاعر الى مراتب الفكر الحر العالى .

الدعوة الى مجد الوطن

حث الأمة المصرية على طلب المجد : وذكرها بماضيها . في
قصيدة عصماء قالها على لسان فرعون يخاطب قومه ونشرت في
سنة ١٩٠٩ .

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
إذا ونى يوم تحصيل العلا واني
ولست - ان لم تؤيدني فراعنة
منكم - بفرعون على العرش والشان
ولست جبار ذا الوادى اذا سلمت
جباله تلك من غارات الموانى
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كسلا دون مسورده
أو فاطبوا غيره ربا لظمان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم
لا تتركوا بعدكم فخرا لانسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته
حتى يحيط لكم عن وجهه امكان

ثم يذكر المصريين بمجد ملوكهم القدامى وعزمهم فيقول :

مقالة هبطت من عرش قائلها
على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من دعر ودان لها
ما فى المقطم من صخر وصوان
لو غير فرعون ألقاها على مالا
فى غير مصر لعدت حلم يقظان
لكن فرعون ان نادى بها جبلا
لبت حجارته فى قبضة البانى
وأزرتة جماهير تسميل بها
بطاح واد بماضى القوم ملآن
يبنون ما تقف الأجيال حائرة
أمامه بين اعجاب واذعان
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت
على نظائره فى الكون عينان
أهرامهم تلك حى الفن متخذا
من الصخور بروجاً فوق كيوان (١)
قد مر دهر عليها وهى ساخرة
بما يضع من صرح واىوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
ما يأخذ النمل من أركان ثهلان (٢)

(١) كيوان : اسم لكوكب زحل ، وهو لفظ معرب .

(٢) اسم جبل فى بلاد العرب (بلاد بنى عنبر بنجد) .

جاءت اليها وفود الأرض قاطبة
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتها
وغض بنيانها من كل بنيان
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة
بأنهم أهل سبق ، أهل ايمان
وأن فرعون فى حول ومقدرة
وقوم فرعون فى الاقدام كفؤان
الى أن قال :

اين الألى سجلوا فى الصخر سيرتهم
وصغروا كل ذى ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول
وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مغلدة
فى الكون ما بين أحجار وأزمان

وتصور هذه القصيدة ما كان لمصر فى تاريخها القديم من
جبروت وسلطان وما كان لعزائم أبنائها من حول وطول ، والقصيدة
تعرض هذا فى منظر حتى يقف فيه فرعون مصر خطيبا فى قومه ،
مستعزا بهم ، واثقا من استجابتهم ، مطالبيا اياهم أن يقوموا بحق
النيل عليهم من الجد والعمل ، مناشدا اياهم أن يصلوا حاضرهم
بماضيهم وأن يبنوا كما بنت الأجيال قبلهم .

هذه المقالة التى هبطت من عرش قائلها لم تقع على أذان
صماء ، ولا على عزائم واهنة ، ولكنها هبطت على مناكب أبطال
وشجعان استجابوا لها ، واستجاب معهم الصخر والجبل ، قلبت

حجارته ، وسال الوادى بجماهيره ، وارتفع البناء فى الفضاء فأصبح
أعجوبة الزمان ، وحيرة الأجيال ، ومعجزة من معجزات الخلق
والابداع ، والشاعر هنا حريص على أن ينصف الشعب ، وان ينفى
عنه صفة الخوف والطمع وأن يثبت له صفات البر بفرعونيه ، والرغبة
فى الاجادة والاتقان . وليس أدل على هذه الصفة الأخيرة من تلك
الأهرام ، التى وقفت على صفحة الأيام شامخة شموخ البروج فوق
الكيوان تهزأ بالدهر ، وتسخر بما يضععه فى صرح واىوان .
وإذا كان الليل والنهار لا يكران على شىء الا ألبياها فأنهما لم يأخذا
منها الا بقدر ما يأخذ النمل من أركان جبل من الجبال ، وانها الوثيقة
الخالدة لمجد مصر القديم ، تحج اليها الوفود من أقطار الأرض لتقرأ
فيها أسطار العظمة والجلال ، ثم ترتد عنها وقد عرفت فضل المصريين
بعد أن كانت تنكره ، وشهدت ما كان لهم من سبق وامعان ، ولو
أن هذه الوثيقة استحالتم عموتا ناطقا لأسمعت من به صمم من
الأنس والجن ، بل لروعهم صداها بقوته ورهيبته .

أما عن الفن الشعري لاسماعيل صبرى ، فانه بهذه القوة غنى
الاسلوب والاجلال فى النظم والتخير للعناصر الموحية بالعظمة ،
عرض على الأذهان صورة لمجد الفراعين تبهر العيون والآذان ، وتشير
فى نفوس الأحفاد شعور العزة والفخر بآثر الأجداد وتوجه الوطنية
المصرية الحديثة وجهة البناء والاتقان ، ولن يقوم لمصر بناء حتى
تستكمل سيادتها وتسترد حريتها . (والحمد لله فقد تم للبلاد
استقلالها وللأمة حريتها فى عهد الثورة المجيد) .

وقد حشد الشاعر لهذه الدعوة الى الأحياء الوطنى كل ما شاء
له فنه المتخير من موسيقى ولغة وسور بيانية ، فأما الموسيقى فانها
تمثلت فى البحر الذى اختاره لقصيدته ، وهو بحر زاخر جياش ،
يتسع للفكرة ، ويسمح للشعور أن يأخذ مجراه وينهض بما يحماه
الشاعر من عناصر القوة والتأثير . وأما اللغة فهى تتمثل فى تلك

القوالب التي ترمز الى العظمة والخلود ، والعلو والارتفاع ، والجبروت والسلطان والملك والطاعة والبطولة والشجاعة ، وخضوع الصخر والجبل ، وتلبية الحجر في قبضة الباني ، وسيل البطاح بالجماهير ، ووقوف الأجيال حائرة بين اعجاب واذعان ، وشموخ الاهرام وسخريتها من الأيام ، ووقوف الليل والنهار منا موقف النمل من جبل تهلان ، وضخامتها التي صغرت كل موجود وغضبت من كل بنيان .

وأما التصوير البياني فهو يتجلى في تلك اللوحة الناطقة التي عرضها الشاعر لا عرضا اجباريا - ولكن عرضا تأثيريا ، تتحدث أشخاصه ، وتعبّر هياكله وأطوائه وتشيع الحركة في كل جوانبه .

علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل

كانت الوطنية (١) الصادقة الحارة أظهر شيء فى حديثه اذا نطق ، غالبية على تفكيره اذا صحت ، رائدة فى جميع أعماله كلما حل أو عقد ، وولى أو عزل مستولية على ميول قلبه واحساسات نفسه كلما رضى أو غضب .

ولم يكن احساسه الوطنى احساس فرد يشعر بآلام أمة ذات ملايين هو واحد منها ، وله نصيب ضئيل من آلامها وآمالها ، بل كان شعوره باستعباد الأمة كأنه استعباد لشخصه ، مقصور عايه ، واحساسه بمذلتها كأنها مذلة موجهة اليه ، وتمنيه لتحرير وطنه كأنه تحرير له ، وتلك رتبة فى الشعور الوطنى وفناء الفرد فى المجموع قلما يرقى اليها شعور زعيم من زعماء الوطنية فى أى شعب . ولعل أهم صفحة من صفحات اسماعيل صبرى خلودا ، هى الصفحة الخاصة بعلاقته بالزعيم الشاب مصطفى كامل . بل لعل الصورة الوطنية الكاملة لهذا الشاعر لا تتم ملامحها ، وتشكل زواياها بدون دراسة هذه العلاقة وآثارها ونواحيها المختلفة وذلك بالنسبة للآثار الكبيرة التى انطوى عليها جهاد الزعيم مصطفى كامل ، ان العمل

(١) من أقوال أحمد الزين فى مقدمة لديوان اسماعيل صبرى باشا المطبوع

الوطني الكبير الذي اضطلع بأعبائه ، ذلك الزعيم قد وضع بينه وبين جميع قادة البلاد الذين كان من سياستهم مهادنة الاحتلال واسترضائه حاجزا كبيرا ، فقاطعوه وأعلنوا عليه حربا شعواء ماعدا قلة من القادة المخلصين ، آزروا وأيدوه ، وشهدوا أزره بأموالهم وجهودهم ، وانضمت لهم القوة الجماهيرية الشعبية التي التفت حوله ، وناصرته في الجهاد وكان من هذه الصفوة اسماعيل صبرى .

كيف تعرف بالزعيم مصطفى كامل ؟

كان من رفاق مصطفى كامل في دراسة الحقوق ، فؤاد بك سليم ، تلاقيا لأول مرة بمدرسة الحقوق الخديوية ، فتعارفت روحاهما واثلتفا اثتلافا قلبيا وروحيا وقويت بينهما من ذلك الحيز أواصر الصداقة والمحبة ، وتعرف بوالده لطيف باشا سليم ، وكان علما من أعلام الحركة الوطنية ، تخرج من مدرسة أركان الحرب ، وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية ثم تولى مهمة التدريس في المدارس الحربية ، فكان خير معلم وأستاذ ثم عين مفتشا بوزارة التربية والتعليم ، ثم مديرا للفيوم ، ثم رئيسا فخريا للمحكمة المختلطة ، واشتهر بأخلاقه العالية ، ووطنيته الصادقة وشجاعته واستقلاله ، كان عالما واسع الاطلاع شغوفًا بالعلم والأدب ترك مكتبة حوت نفائس الكتب ، قديمها وحديثها ، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا على وزارة نوبار باشا في عهد الخديوي اسماعيل في فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكان وقتئذ أستاذا بالمدرسة الحربية ، وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل ، عرفه مصطفى كامل منذ كان طالبا ، بواسطة نجله السابق الذكر ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية بعد ما انتكست البلاد بهزيمة الثورة العراقية وانتصار الانجليز ، فكان يقول عنه لنجله ، قبل أن يعظم

شأنه : (انه الشعلة الوطنية) وقد صحت نبوءته ، وحققت الأيام قراسته وصدق نظره ، وظل طول حياته معضدا ومؤيدا له في جهاده ، ولما مات حزن مصطفى كامل عليه حزنا عميقا . كان له أثر في انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير :

كتب في هذا الصدد إلى مدام جوليت آدم بتاريخ ٧ من يناير سنة ١٩٠٨ (أى قبل وفاته بشهر واحد)

يقول :

انى مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطنى « الى ان قال : أما صحتي فهي بين اليأس والرجاء ، والأطباء مطمئنون الآن ، والسبب في انتكاسى بعد خطبتي ، راجع الى مفاجأة المنون صديقا حميما لى ، كان من أشد وأكبر نصرائى هو المرحوم لطيف باشا سليم .

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولم يبلغ الخامسة والخمسين وقد نعاها مصطفى كامل وهو مريض بجريدة اللواء فقال عنه :

« آخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخا رءوفا ، وصديقا حميما ، ومواطننا محبا لبلاده ، لا قدرة لكاتب أن يصفه ، وقد انتقلت صداقته لمصطفى كامل الى نجله فؤاد باشا سليم فظل حافظا لمودته وعهده على مر السنين ، » .

وكان للطيف (١) باشا سليم صالون أدبى ، تعقد فيه الندوات الأدبية والسياسية ، يجتمع فيه كبار القادة والأدباء

(١) مجموعة اقرا - مصطفى كامل لفتحى رضوان .

والعلماء ، وصفوة الطبقة المثقفة في البلاد ، وكان مصطفى كامل على صغر سنه ، وحداثة عهده من المترددين عليه بانتظام ، رقد استفاد من هذا الصالون ما جعله من صميم خطته في الكفاح الوطني وهي أنه لا سبيل لجلاء الانجليز عن البلاد ، بعدما قضى على القوة العسكرية بها الا بعمل سياسي ، أي بالدعوة في الخارج والاتصال بكبار رجال السياسة الأوروبية .

وقد غلبت على هذا الصالون النزعة الأدبية ، وسادته العقلية السياسية ففتح مصطفى كامل عينيه بشدة على هذه الحقائق الغربية التي تكشفت لعقله ، وقد تعرف الى كبار رجال السياسة والأدب بواسطة هذا الصالون ، وتوثقت صلته بهم ، وتذكر منهم الشيخ علي الليثي الشاعر والأديب الكبير ، الذي كان له الفضل في توثيق صلته بالخدوي عباس ، وعنى بك فخري وأمين باشا فكرى واسماعيل بك شيمي وآخرين من أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ثم بصفة خاصة تعرفه بالشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى ، الذي أولاه حبا واخلاصا وآزره بروحه وشعوره ، ولم يحل فارق السن بينهما (أكثر من عشرين عاما) من أن يظاهر اسماعيل صبرى صديقه الشاب في جهاده وكفاحه الوطني ، فتراه دائما يثنى عليه في مجلسه ، ويقوى من شأنه ، ويدفعه الى المثابرة رغم ما واجهه من ظروف واحن كانت كفيلا أن تشنيه عن الجهاد وتضعف من عزيمته وتوهن من ارادته .

وقد أشار أحمد شوقي في رثائه لاسماعيل صبرى . بهذه العلاقة العميقة التي بينهما حيث قال :

ويح الشباب وقد تخطر بينهم
هل متعوا بتمسح وطواف
لو عاش قلوبهم ورب « لوأثمهم »
نكس اللسوء لثابت وقواف

فلکم سقاہ الود حین ودادہ
جرب لأهل الحكم والأشراف
لا یوم للأقوام حتی ینھضوا
بقوادم من أمسہم وخوافی

وكانت روح اسماعيل صبرى وأفكاره تبارك جهاد ذلك الزعيم الشاب ، وتحيطه بالتعصيد منذ كان طالبا في المعاهد العليا فقد أولاه صديق معونته وهو يجاهد في سبيل مصلحة بلاده وكان اسماعيل صبرى يقول لنفسه (لو لم آكن قاضيا ، لاشتركت مع مصطفى كامل في العمل الوطنى ، ولكنى معه جنبا الى جنب) رغم أن الوظائف القضائية الكبيرة التى تسنمها لم تحل دون أن يظهر تشجيعه وتأييده له عمليا وعلنيا كلما حانت الظروف المناسبة . ومن الأحداث التى أظهرت حقيقة اسماعيل صبرى وتقديره له ، أنه حينما كان محافظا لاسكندرية وكان الزعيم مصطفى كامل عازما على الخطابة فى إحدى الحفلات السياسية التى نظمها لذلك الغرض ، أوعزت الحكومة اليه أن يمنع إقامة هذه الحفل ، وبالتالي منع مصطفى كامل من الخطابة ، محتجة بالخوف على الأمن من أن يختل نظامه ، والقانون ان تنتهك أحكامه ، فأبى صبرى على الحكومة كل الإباء وخلي بين مصطفى وشعبه يخطبه كما شاء وقال لولاية الأهود فى الحكومة :

(انى مسئول عن الأمن فى المحافظة ، وسوف يخطب مصطفى كامل وأنا واثق من عدم حدوث ما يخل بالأمن) !! وان هذا التصرف من موظف كبير ، مرموق الشأن ليعد جرأة وشجاعة فائقة بالنسبة له ، لأن الحكومة لم تكن تنظر بعين الارتياح لأى شخصية مسئولة تتصل بمصطفى كامل أو تصادقها وكان يتصرفه هذا يعلنها على الملأ بصراحة وبغير موارد أو تخاذل ، أنه بقلبه وروحه يؤيد مصطفى كامل .

ولما مات مصطفى كامل ، جزع لفقده أشد الجزع ، وحزن عليه
أبلغ الحزن ، وأعد قصيدة لراثته ووقف على قبره وهو يوسد
الثرى ، وبدأها بقوله :

اداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا هددت القوى اذ قمت بالأسى ناعيا

حتى ملكته العبرة ، وغاب عن الوعى ، وأجهش فى البكاء ،
فلم يتم تلاوة القصيدة وفقدت منه بعد ذلك ، ولعمري أن هذا
أبلغ مظهر لجه ، وحزنه الشديد على الزعيم الشاب ، الذى راح
فى عنفوان الشباب وشرح الصبا محترقا بجذوة الوطنية ، ولو أنى
سمعت من بعض قدامى المثقفين رأيا هذا مؤداه : (١) .

حين انفعل اسماعيل صبرى انفعالا شديدا وهو يناقش
قصيدته ، ولم يستطع اكمال القائتها ، أكملها نيابة عنه شاعر
النيل حافظ ابراهيم ، ثم نسبت اليه خطأ .

وأوردها المؤرخ الوطنى الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه
عن مصطفى كامل منسوبة الى حافظ ابراهيم ولكن اذا عرفنا طباع
اسماعيل صبرى وعدم اكرانه بشعره ، وعدم احتفاله كثيرا
بالعناية به ، وجدنا أن الأمر ليس من الصعب وقوعه ، فاذا كانت
القصيدة نسبت الى حافظ ابراهيم باعتباره أنه الذى القاها ، وأن
الصحف المعاصرة ذكرتها على هذا الأساس ، ولم يقم من الناس من
يصحح الأمر ويجلو الحقيقة ، فهذا لا يمنع ان تكون القصيدة هى

(١) ذكر هذا الرأى الأستاذ محمد المرحوشى من كبار سراء وتجار القاهرة
ورئيس الفرقة التجارية سابقا ، وهو من أعضاء ندوة الأستاذ الكبير توفيق الحكيم .
وقد نقل لى هذا الرأى عن الأستاذ راغب الدكرورى وكيل وزارة الداخلية السابق
وكان ضمن الذين اشتركوا فى تشييع جنازة مصطفى كامل .

قصيدة اسماعيل صبرى والأمر لا يعدو الالتباس ولا بأس أن نورد
هنا الأبيات الأولى من هذه القصيدة وهى من نفس الوزن والروى
الخاص بالببيت الأول الذى ألقاه الشاعر : وسواء كان هذا انزعم
صحيحا أو غير صحيح فلا جناح من ايراده .

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل والى ضيفك جاثيا

عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى
شهيد العلا فى زهرة العمر زاويا

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده
لكان التأسى من جوى الحزن شافيا

ولكن فقدنا كل شىء بفقده
وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا

فياسائل أين المروءة والوفى
وأين الحجا والرأى ويحك هاهيا

هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح
فقد اسكت الصوت الذى كان عاليا

ومات الذى احيا الشعور وساقه
الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

أما قصيدته فى ذكرى الأربعين فهى فيما يلى :

أجل أنا من أرضاك خلا موافيا
ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا

وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل
كما ذقت منه الحب والود صافيا

ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى
إلى بعض ما يهوى فيرجع دأبها
وان راحه سرب المسرات لم يجد
محللا به من لاجع الهم خالها
ألا عللاني بالتعازي وأقنعها
فؤادي أن يرضى بهن تعازيا
والا أعيناني على النوح والبكا
فشأنكما شأنى وما بكمما بيا
وما نفعى أن تبكيا غير اننى
أحب دموع البر والمرء وأفيا
أيا (مصطفى) تا لله نومك رأينا
أمثلك برضى أن ينم الليالي
تكلم فان القوم حولك أظرقوا
وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة
تخالك أعواد المناجر فانيا
وتبكيك ، لولا أن فيها بقية
تعلاها من ذلك الصوت داويا
فهل الفت ما بين جفك والكبرى
مخالفة أم قد أنت الأعديا

★★★

فقدناك فقدان الكمي سلاحه
وسارى الدياتجى كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى
سقاها الحيا تستبطنى التمع هاميا

ولولا تراث من أمانيك عندنا
كريم بكينا اذ بكينا الأمانيا
اطواك الردى طى الكتاب تضمنت
صحائفه من كل فخر معانيها
مضاء اذا البيض انتمت لأصولها
غضبنا اذا سماك قوم يمانيا
ورأى يجلى اليأس واليأس ضارب
على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا
اذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
ذكرناهما حتى نجد التقاضيا
فليتك اذ أعيت كل مساجل
قنعت فلم تعى الطبيب المداويا
وليتك اذ ناضلت عن مصر لم تفض
مع الحبر قلبا - يعلم الله - غاليا

★★★

لقد ضاع اخلاص الطبيب وحذقه
سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
يحبيك سيفا بات فى التراب مغملا
تقلده - فيما مضى الحق ماضيا

وهذه القصيدة تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنبيه عن اوعية
صديق محزون هذه الحزن وأمضه الأسى ، الا أنه لم يصور فيها
مصطفى كامل المشتعل حماسة ، والثائر على قيود الرق وأغلاله بما

يليق به ، واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه ، وليس فيها من نبا عن وطنيته الا اشارات عابرة ، ويبدأ القصيدة بهذا البيت :

أجل أنا من أرضاك خلا موافيا
ثم يقول :

تكلم فان القوم حولك أطرقوا

ويخيل اليك أن سيفيضي في ذكر مزاياه ، ثم يتحدث بأسهاب عن وطنيته ولكنه يشير بعد أبيات في ايجاز شديد ، الى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر وكوكبها المضيء في دجنة الحوادث ، وأنها فقدت هذا السلاح وهي أحوج ما تكون اليه . وهذا الكوكب ، وهي تتخبط في الظلماء ، ولولا ما خلفه من الأمانى في نفوس مواطنيه لكان في بكائهم عليه بكاء على أمانيتهم .

ويرى بعض النقاد أن اسماعيل صبرى لم ينطلق على سجيته وأنه يمشى بحذر ، خائفا يترقب - فثمة الانجليز وثمة القصر ، وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل ولكنه كان على كل حال أجرا من أحمد شوقي في هذه المناسبة . ولكن هذا الرأى مردود ، لأن الشاعر قد اعتزل خدمة الحكومة في ٢٨/٢/١٩٠٨ ، وأنه لم يكن يخشى بأس الانجليز سواء أثناء خدمة الحكومة أو بعدها وكان شجاعا في إبداء رأيه ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى .

تمثال مصطفى كامل

انتهت حياة مصطفى كامل كنا تنتهى حياة الشهب الخاطفة ، نلمحها حين تمر بمجالنا الجوى ، ذات نور ساطع خاطف ، ثم تعبر وتختفى ، ووجمت النفوس من هول المصاب ، وهلعت القلوب . لاختفاء هذه الشخصية الفذة فى تاريخ الوطن الى الأبد ، وخلا المنبر من خطيبه الشاب الوطنى العظيم ، وحرمت الجماهير رؤية هذا المحيا الساطع المضى ، فكان لا بد من اتخاذ اجراء لتخليد ذكره ، حفاظا على عهده ومبادئه ؛ وتخليد صورته وشخصيته المهمة لى تراها الأجيال القادمة التى حرمت من سماعه ورؤياه ، فاتجهت الأفكار الى اقامة تمثال له ، وتلك هى قمة التقدير الوطنى للزعيم الشاب الوفى ، المؤسس للحركة الوطنية الحديثة فى هذا القرن .

ولاول مرة فى تاريخ مصر ، منذ الاحقاب العريقة فى القدم ، منذ كان المصريون يشيدون التماثيل الضخمة لملوكهم المعبودين ، يشترك المصريون عن طواعية واختيار ، فى اقامة تمثال لواحد منهم ، لم يكن ملكا ولا أميرا ولا حاكما . ومن أموالهم الخاصة لا من أموال الدولة الحاكمة ، وجميع التماثيل المقامة بالبلاد حاليا هى من عمل الحكومات لا من عمل الأفراد ؟؟) ولذلك كان لهذا العمل مغزا ، ودلالته العظيمة .

ويشرف تاريخ الشاعر اسماعيل صبرى أنه كان على رأس اللجنة التي شكلت لتنفيذ هذا المشروع الوطنى ، فى ١٦ من فبراير سنة ١٩٠٨ أى بعد وفاة مصطفى كامل بأيام قلائل . (١) وضمت فى عضويتها محمد بك فريد خليفة مصطفى كامل العظيم ومكمل رسالته ، والناسج على منواله ، والدكتور محمد علوى باشا ، وأحمد لطفى السيد بك (صاحب الآراء المخالفة لصاحب الذكرى تماما ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بوطنيته) وحسن باشا عبد الرازق ومحمود بك أبو النصر ، وعلى بك فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ، ومرقس حنا باشا وويصا واصف بك عضوا للجنة التنفيذية للحزب الوطنى (ومن زعماء حزب الوفد المصرى بعد ذلك) وعبد العزيز فهمى باشا من أصدقاء مصطفى كامل (ورئيس حزب الاحرار الدستوريين فيما بعد) وفؤاد بك سليم ويوسف صديق باشا والياس بك عوض ، وعمر بك سلطان ، واحمد بك عبد اللطيف .

أى أن هذه اللجنة تمثل خلاصة الطبقة المثقفة الممتازة فى مصر مسلمين ومسيحين ولعمرى فان ائتلاف هذه النخبة الممتازة برئاسة اسماعيل صبرى ليشهد له بالشخصية التى اكتملت فيها مقومات الوطنية ، والنبيل ، والمناقب العالية على أسمى مستوى .

نشاط اللجنة .

اجتمعت اللجنة المذكورة لأول مرة فى مبنى ادارة صحيفة (الجريدة) وكان مديرها احمد بك لطفى السيد فى يوم الاحد ١٤ محرم سنة ١٣٢٦ الموافق ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ فى الساعة ٣ بعد الظهر باعتبارها لجنة هذا المشروع - الجليل واصدرت قرارا للامة نشر فى جميع الصحف المصرية وناقشته صحف العالم كله وهذا نصه :

(١) كتاب مصطفى كامل باعت الوطنية ص ٣٠١ نعيد الرحمن اليرافى .

أولاً : اختيار سعادة اسماعيل صبرى باشا رئيساً للجنة والدكتور محمد علوى باشا والياس بك عوض وكيلين ، ويوسف صديق باشا أميناً للصندوق .

ثانياً : تخصيص المبالغ التى تجمع من الاكتتاب لاقامة تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا بالقاهرة ويخصص ما يتبقى من ذلك لمدرسة مصطفى كامل المعدة لقبول جميع الطلبة المصريين بلا تمييز فى الدين على الطريقة التى تقرها اللجنة فيما بعد .

ثالثاً : جميع المبالغ التى تجمع من الاكتتاب تسلم لأمين الصندوق لايداعها بأحد البنوك وهو البنك الألمانى الشرقى .

رابعاً : تقبل اللجنة كافة المبالغ المكتتب بها مهما قلت قيمتها وسواء ذكر اسم صاحبها أو لم يذكر .

خامساً : يقفل الاكتتاب بعد مضى شهرين من تاريخ اليوم
أى فى ١٦/٤/١٩٠٨ .

سادساً : تجتمع اللجنة بمركز ادارة الجريدة كل يوم أحد فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر وتكون قراراتها نافذة متى حضر الاجتماع خمسة من أعضائها بما فيهم الرئيس .
وبناء على ذلك أقفل المحضر ووقع الحاضرون .



على أثر نشر هذا القرار فى الصحف العربية بعث المواطنون من جميع أنحاء البلاد إكتتاباتهم لكل من جريدتى اللواء والجريدة،

ولم يكن مؤثرا فيهم الا شعورهم الوطنى ومجرد الدعوة فى الصحف
ولم ترسل اللجنة مكتوبيا واحدا لآى مصرى لتحثه على الاكتتاب ولا
الفتلجانا متعددة لهذه الغاية كما يفعل القائمون بأمثال هذا المشروع .

**فجاء الاكتتاب دليلا على ان هذا العمل قد تم بمحض شعور
الأمة واراقتها اما ما ورد من الاكتتاب لتخليد اثر الفقيه العظيم
وما صرف فى سبيل صنع هذا التمثال فهذا بيانه :**

	مليمة جنيهه	
ما ورد من اكتتاب اللواء	٢١٠٠	...
ما ورد من اكتتاب الجريدة	١١٥٠	...
	<hr/>	
المجموع الكلى	٣٢٥٠	...
مصاريف صنع التمثال ونقله الى مصر	٢١٢٠	...
	<hr/>	
الباقى وقد قرر على بك فهمى كامل صرف هذا المبلغ على شراء عين مشمرة تكون وقفا على التعليم المجانى بمدرسة مصطفى كامل	١١٣٠	...

صنع التمثال :

كلفت اللجنة محمد بك فريد الاتفاق مع أحد مشاهير المثالىين
على صنع هذا التمثال فعرض أمره على مسيو لابلاتى مدير مدرسة
الفنون الجميلة التى أسسها بالعاصمة الأمير يوسف كمال وهم
جنابه بصنعه لولا أن جالت ظروف قصر المعدات الموجودة بمصر عن
تنفيذ المشروع مما حدا بمحمد بك فريد على أن يتصل بأحد كبار
المثالىين بباريس وهو المثالى الكبير المسيو ليوبولد سافين ، على أن
يصنع تمثالا بالحجم الطبيعى لمصطفى كامل من البرونز ؛ وقد أتم

عمل نموذج للتمثال من (الجص) وعرضه في معرض الفنون الجميلة بباريس في شهر مايو ١٩١٠ فنال هذا النموذج الجائزة الأولى وأثنت جميع الصحف الفرنسية عليه .

وأتى صنع التمثال الحقيقي في أواخر عام ١٩١٣ ووصل القاهرة في أول يناير ١٩١٤ .

جهود اللجنة لإقامة التمثال :

قام اسماعيل صبرى بوصفه رئيسا للجنة بالاتصال بالحكومة في شأن هذا التمثال ونصبه في أحد الميادين العامة بالقاهرة ، وكان الاتصال الأول بوزير الأشغال حسين فخرى باشا في وزارة مصطفى فهمى ، الذى طلب من اللجنة بيانا عن المكتتبين وما اكتبوا به ولما تأكدت الحكومة ان عدد المكتتبين فى هذا التمثال بلغ ٢٣٤١٦ مكتتبا وكلهم يمثلون جميع طبقات الأمة تأكدت انه من عمل الأمة ووعدت بنظرها فى الأمر عند قدوم التمثال ، أما الاتصال الثانى فكان فى وزارة بطرس غالى باشا وكان صديقا للشاعر فوعد بانجاز الموضوع حالما يصل التمثال ، والمرة الثالثة فى وزارة محمد سعيد باشا وقد كانت فى أواخر أيامها فلم تبت فى الأمر .

ثم جاءت وزارة حسين رشدى باشا التى دهمتها الحرب الكبرى الأولى فسكت الناس جميعا عن التمثال .

وما ان وضعت الحرب أوزارها وتنفست الأمة الصعداء وناذت باستقلالها التام حتى عاد الاحتفال بذكرى مصطفى كامل سيرته الأولى وتساءل الناس من كل حدب عن تمثال مصطفى كامل صاحب الفضل الأكبر فى اليقظة الوطنية الأولى وقد ظن أغلبهم انه لم يصنع أو أنه ان كان قد صنع ليس موجودا فى مصر .

لذلك رأى على بك فهمى شقيق ، مصطفى كامل حسما
للأمور وردا على أسئلة الجماهير ، فتح الصناديق المحفوظ بها التمثال
واقامته فوق منصفه من منصات كلية مصطفى كامل وعرضه على
الشعب فى الاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوفاة «مصطفى كامل» .

وما ان علمت اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى بالكشف عن
صناديق التمثال حتى قررت ان يكون الاحتفال بالذكرى فى ذلك
العام (١٩٢١) يوم الخميس ١٠ فبراير سنة ١٩٢١ لحفلة السيدات
ويوم الجمعة ١١ فبراير لحفلة الرجال وناطت تنسيق الحفلة الى لجنة
من خيره أعضاء الحزب فكانت أثيرة فى البهجة والكمال - وخرج على
بك فهمى كامل للصحفيين فى هذا الاحتفال وقال ان نصب التمثال
فى كلية الفقيد هو عمل مؤقت لأن الأمة ما اکتبتت فى صنعه ليكون
بين أربعة جدران بل ليكون فى أكبر ميدان فى العاصمة وما كشف
عنه فى كلية مصطفى كامل إلا لأنه كان مخزونا فيها ، ولينأكد
الناس جميعا ان التمثال موجود فى مصر منذ سبع سنين وأنه ينتظر
كما انتظر تمثال ميرابو خطيب الحرية فى فرنسا ليخرج من سجنه
ويقف حرا رفيع الرأس على مرأى من أمته الحرة المستقلة .

حفلة السيدات :

ما وافت الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس العاشر من شهر
فبراير ١٩٢١ حتى توافلت سيدات مصر على دار كلية مصطفى
كامل زرافات زرافات من فضائل العقيلات وربات البيوت ، كذلك
اشتركت فى الحفل بعض مدارس البنات يحملن أعلامها ، حتى
اكتظ المكان بهن فجلسن أمام التمثال وجلال الذكرى يحف بهن
وروح مصطفى كامل يرفرف عليهن وكان برنامج الحفلة باختصار
كالآتى :

١ - الساعة ٣ مساء افتتاح الحفل بتلاوة من آيات الذكر الحكيم .

- ٢ - كلمة رئيسة الحفلة السيدة لبيبة هانم أحمد رئيسة جمعية نهضة السيدات .
- ٣ - كلمة السيدة نفسية هانم كامل شقيقة مصطفى كامل .
- ٤ - قصيدة شعرية تشيد بالتمثال وذكرى مصطفى كامل .
- ٥ - كلمة السيدة أمينة غازى هانم .
- ٦ - كلمة الأنسة عائشة هانم الخلفاوى .
- ٧ - كلمة الأنسة سعاد هانم الخلفاوى .
- ٨ - كلمة السيدة وحيدة هانم الطوبجية .
- ٩ - كلمة الأنسة نبوية هانم محمد فهمى .
- ١٠ - قصيدة من الأنسة روقيه ناظرة مدرسة البنات الابتدائية بالجيزة .

وجميع القصائد والخطب كان محورها ذكرى مصطفى كامل ومبادئه الخالدة والاحتفاء بعرض التمثال على الملأ ، وكان الحفل جميعه مظهرا رائعا للوعى الوطنى النسائى فى مصر منذ خمسين عاما .

حفلة الرجال :

وقف كبار رجال الحزب الوطنى فى الساعة ٩ من صباح يوم الجمعة ١١ فبراير سنة ١٩٢١ على باب كلية مصطفى كامل بالقاهرة يستقبلون القادمين للاحتفاء بذكرى الزعيم وتحية للتمثال وكان برنامج الحفل بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم كالاتى :

- ١ - كلمة من الاستاذ محمد زكى على سكرتير الحزب بافتتاح الحفل وتقديم الخطباء والشعراء .
- ٢ - خطاب على بك فهمى كامل وكيل الحزب الوطنى بمناسبة الذكرى .
- ٣ - قصيدة الشاعر الكبير مرسى شاكر الطنطاوى .

٤ - قصيدة الشاعر محمود محمد صادق باسم شباب مصر .

وكان في مقعدة الذين حضروا الحفل اسماعيل أباطة باشا
ومحمود باشا أبو حسين والياس بك عوض وأعضاء الحزب الوطنى
ووفد من الحزب الديمقراطى مؤلف من ابراهيم دسوقى أباطة و ابراهيم
الشواربى باشا وحسن نافع وجمهور كبير من المثقفين وطلبة
المدارس العليا والثانوية والقضاء الشرعى والمعاهد الدينية والصناع
والعمال .

وكان من المأمول أن يكون على رأس هذا الحفل شاعرنا الكبير
اسماعيل صبرى كيف لا - وهو صاحب المجهود الأكبر فى اقامة
التمثال والدعوة اليه ، ولكنه لم يحضر ولم يتحف الجمهور بقصيدة
وطنية من قصائده الروائع فى هذه المناسبة الخالدة التى طالما كان
ينتظرها ، ويتحرق شوقا اليها - نعم لم يحضر شاعر مصر العظيم
فى حفل اقامة تمثال مصطفى كامل وهو الذى كان من أكبر معاونى
مصطفى كامل

لقد كان رقيب الفراش أضناه المرض وبرح به الداء ، وأعجزه
عن الحضور ومع ذلك فقد أرسل كتابا يعتذر فيه الى على فهمى كامل
عن الحضور لمرضه وجاء فيه :

« لو أن الذبحة الصدرية تركت لى شيئا من الصحة يمكننى
من وجودى بين المحتفلين بذكرى عزيزنا فقيد الوطن العزيز لما
تأخرت أبدا عن حضورى بين المعجبين بصفاته العالية النادرة ، ولكنى
أمضيت شهر يناير طريح الفراش وأصبحت غير قادر على الحضور ،
فاذا لم تجدنى بينهم أيها الصديق الجميم فأعلم اننى أكثرهم اعجابا
بذلك الفقيد العظيم » (١) .

(١) من كتاب « ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة » المطبوع فى سنة ١٩٢١
تأليف على بك فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل) .

ثم مات اسماعيل صبرى ولم تكتحل عيناه برؤية التمثال فى
أحد ميادين العاصمة التى كانت مسرحا لجهاد مصطفى كامل .

ثم توالت الأيام والتمثال باق فوق منصة كلية مصطفى كامل
الى أن حان الحين وقررت الحكومة فى عهد المرحوم على ماهر باشا اقامته
فى ميدان سوارس (تغير اسم الميدان بعد ذلك الى ميدان مصطفى
كامل سنة ١٩٤٠) .

واحتفلت البلاد شعبا وحكومة فى مايو سنة ١٩٤٠ بازاحة
الستار عن ذلك التمثال الخالد الذى ظل سجينا زهاء ستة وعشرين
عاما .

حادثة دنشواى

ان حادثة دنشواى من الأحداث التاريخية فى تاريخ مصر .
لما كان لها من الآثار البالغة فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز
الاحتلال الانجليزى ، والحادثة باختصار أن خمسة من ضباط
الاحتلال رغبوا يوم ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ فى صيد الحمام فى
بلدة دنشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء ، بمركز شبين الكوم ،
وفى أثناء اطلاقهم بنادقهم على الحمام حدث أن أصاب أحدهم امرأة
هى زوجة محمد عبد النبى المؤذن فى القرية كما أصاب الجرن
فسقطت المرأة جريحة ، تتخبط فى دمائها ، واشتعلت النار فى
الجرن ، فصاح أحد الفلاحين مستغيثا ، وهجم على الضابط الذى
أطلق النار ، وتجاذب واياه بندقيته ، وأقبل الرجال والنساء ،
والأطفال هائجين صائحين : الحواجه قتل المرأة ، وحرقت الجرن ،
وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم فتكاثرت
جموع الاهلين ، ووصل فى نفس الوقت شيخ الحفر ومعه الحفراء
لتفريق الجموع وانقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون
بهم سرا ، فأطلقوا عليهم العيارات النارية فأصاب أحدهم شيخ الحفر
فى فخذه فسقط على الأرض ، وأصاب عيار آخر اثنين آخرين أحدهما
من الحفراء فصاح الجميع ، شيخ الحفر قتل فهجموا على الضباط
بالطوب والعصى الغليظة واثخنوا من لحقوا بهم ضربا فأصيب أحد

الضباط بكسر في ذراعه ، وجرح آخرا بجرّوح خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم ، وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ البوليس وأوصلهم الى المعسكر .

أما الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى وهما من أعضاء فريق الصيد فقد تركا مكان الواقعة ، وكان الأول منهما قد أصيب اصابة شديدة في رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات في حمارة القيظ ، فلم يكدا الكابتن بول يصل الى باب سوق « سرسنا » حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشمس ، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل الى معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على شاطئ التربة الباجورية . فأخطر الجنود الذين هرولوا الى مكان الواقعة ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا « سرسنا » وظنوا أنها دنشواى وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ، ورأوا فلاحا هو « سيد أحمد سعيد » يقدم اليه قنبا من الماء فظنوه من الضاربين ، فأخذوا يطعنونه ويضربونه ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد من قتلته .

ثار الاحتلال لهذه الحادثة علما بأن المسئول الأول عنها هم الضباط الذين اقتحموا بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاسطباد الخمام المملوك لهم ، وذهب المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها وجرى التحقيق بمنتهى السرعة وأخذ ولاية الأمور يقبضون على الأهالى جزافا ، وأعدت المشائق وأرسلت لمكان الواقعة قبل أن ينتهى التحقيق ، وانعقدت المحكمة المخصوصة صباح ١٩٠٦/٦/٢٧ وقضت بافطع الأحكام وهى الاعدام شنقا على أربعة من المتهمين هم حسن على محفوظ ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم ومحمد برويش زهران والأشغال الشاقة على محمد

عبد النبي وأحمد عبد العال محفوظ والسجين لمدة ١٥ سنة ، ٧ سنوات على عدد آخر من المتهمين مع الجلد .

وقد قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل انصاف وعدل .

مصطفى كامل وحادثة دنشواى :

رغم أنه كان وقتها فى أوروبا للاستشفاء ، ونصح له الأطباء بالتزام الراحة والهدوء فإنه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه ، وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، ويعلنها حربا شعواء على الاحتلال وسياسته فكتب فى جريدة « الفبجارو » الفرنسية المشهورة فى عدد ١٩٠٦/٧/١١ مقالة كبيرة نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين) شرح فيها ظروف الحادث وعرضها على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت من أبلغ وأقوى ما كتب مصطفى كامل بلسان مصر وقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه ، من أن الفلاحين المصريين محبوبون للاحتلال الانجليزى .

وأحدثت المقالة فى أوروبا دويا عظيما ، وتناقلتها جميع الصحف العالمية فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعبارتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوربية والبريطانية صدى بعيد فى الرأى العام الأوربى والانجليزى وتزلزل بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ونصحت جريدة (الترييون) الانجليزية وجوب منح مصر حكومة مستقلة والغريب أنه لم يحتج واحد من المصريين

المستولين في مصر على هذا الحكم الفظيع ولم يستقل وزير من الوزارة المصرية اظهارا لاستيائه وشعوره وانبرى مصطفى كامل - وحده عن الأمة المصرية جمعا يعرض قضية بلده المظلوم على محكمة العالم أجمع . وقد نجح في هذه المهمة أبلغ نجاح .

وكان من نتائج استغلال مصطفى كامل فظاعة هذا الحادث للتنديد بمساوىء الاحتلال البريطاني ، أن أثير الجدل بسبب مأساة دنشواى والأحكام الفظيعة التى قضت بها المحكمة المخصوصة ، فى مجلس العموم البريطانى ؛ وعدل رجال الاحتلال بعدها عن سياستهم التعسفية نحو مصر ، وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة ، وهى نهاية عهد كان من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى ، بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال .

تأثر اسماعيل صبرى بتلك الغضبة الصاخبة التى غضبها مصطفى كامل حين وقعت حادثة دنشواى ، ولكنه لم يقل حين وقوعها شيئا وآثر الصمت ، ولا يعتقد أن صمته كان تقيّة منه أو حرصا على وظيفته ، لأنه لم يكن بالشديد الحرص عليها خصوصا وقد كان فى أواخر أيامه فى الحكومة ، لأنه أحيل على المعاش بعد وقوع هذه الحادثة بسنة واحدة .

ولما نجحت جهود مصطفى كامل وحملته على المعتمد البريطانى كما سبق ذكره ، وصدر العفو عن المسجونين ، انطلقت الألسنة التى اجتمت عن الكلام فى ابان المحنة ، والتى كانت تترقب الفرصة المواتية لتفصح عن الثورة المكبوتة ومن هؤلاء أحمد شوقى ، أما اسماعيل صبرى فقد انتهاز فرصة تهنئته للخديوى عباس بمناسبة عيد الاضحى بعد مرور عامين على الحادثة ، وذكر انطباعاته عن الظروف التى حدثت فى دنشواى ، وشكره لعفوه عن المسجونين .

وبدا هذه القصيدة بقوله :

- ١ - لو أن أطلال المنازل تنطلق
ما ارتد حران الجوانح شيق
- ٢ - هل عند ذاك السراب أنا بعده
في الحى من آماقنا تتدفق
- ٣ - أو ان اضلعنا على ما استودعت
يوم الفراق - من الجوى تتحرق
- ٤ - أمنازل الأعمار أهلك أسرفوا
في الناي اسراف الفنى وانغرقوا
- ٥ - لو أنهم قد انصفوك منازل
ما حازهم فى الكون بعدك مشرق

★ ★ ★

ثم دعا الى منح الأمة دستورا يضمن حقوق المواطنين بقوله :

- ١ - سدد سهام الراى (بالشورى) يحط
بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
- ٧ - واسبق به واضرب وافتح به
ما شئت من باب امامك يفلق
- ٨ - عوذت مجـدك ان تنام وفي الحمى
أمل عقيم أو رجاء مخفق(١)

(١) يريد فى هذا البيت تحقيق أمل الأمة اذ ذاك ورجاءها الدستور والحكيم

- ٩ - ولرب محلل في النهى متحكم
قد كان يخترم النفوس ويوبق (٢)
- ١٠ - أرسلت فيه نظرة ضمن الحجا
والعلم نصرتهبا وقلب مشفق
- ١١ - واخلت رأى الى النهى مستوثقا
مستوزرا وكذا الحكيم يدقيق
- ١٢ - ووهبت فابتكر النضار سحائبا
تهمى وتفتقد المحيل وتغلق
- ١٣ - وان أمرعت تلك الموات وأورقت
فيها الرياض فانما لسك تورق (٣)
- ١٤ - واقلت عشرة قريفة حكم الهوى
في أهلها وقضى قضاء أخرق
- ١٥ - ان أن فيها بأس مما به
وأرن جباويه هناك مطوق
- ١٦ - وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا ؟
وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا ؟
- ١٧ - ما زال يقنى كل عين ما رأوا
فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
- ١٨ - حتى حكمت فجاء حكمك آية
للناس طى صحيفة تبالق

(١) المحل : الشدة والجذب : الاسكك هنا لعقم العقول وقلة ما يصدر عنها .
(٢) يوبق : يهلك .
(٣) أمرعت : أخصبت ، الموات من الأرض ، مالا نبات فيه .

- ١٩ - نزلت ترفرف حول كاتب نصها
 زمرا ملائكة الرضا وتحلق
- ٢٠ - شكرتك مصر على سلامة بعضها
 شكرا يغرب في الورى ويشرق
- ٢١ - ذكرت لك الصبح الجميل ولم تزل
 ترمى الى امر أجل وترمق
- ٢٢ - قانون (دانشواى) ذاك صحيفة
 تتلى فترتاع القلوب وتخفق
- ٢٣ - هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر
 والموت حول نصوصها يترقق
- ٢٤ - ومضاجع القوم النيام أواهل
 بمعذب يودى وآخر يرهق
- ٢٥ - لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا
 ما دام جارحها المهند يبرق
- ٢٦ - فاحكم بفسير العنف واكسر سيفه
 فالعلم أجمل والمكارم أليق
- ٢٧ - لك مصر ماضيها وحاضرها معا
 ولك الغد المتحتم المتحقق
- ٢٨ - والله عونك أن ركبت الى العالا
 طرقا تضل بها الهداة ونفرق
- ٢٩ - والأمر أمرك لا يشاب بريبة
 والحكم حكمك والا له مصلق

وفي هذه الأبيات يصور اسماعيل صبرى فظاعة الحادث .
ونراه لا يكتفى بهذا ولكنه يشير بعد ذلك في الأبيات (٢١ ، ٢٢ ،
٢٧) الى أن هذا القانون الظالم الذى طبق فى هذه الحادثة ، سيظل
يبعث الفزع والرعب فى القلوب ، وان ما ارتكبه من مآثم وماطعن
به مصر من جراح لن يكفر عنها شيء ، ولن تلتئم هذه الجراح مادام
الاحتلال قائما ، وجنوده تبرق وترعد وكنى فى بيت (٢٥) عن المحتل
الغاصب بالجراح المهند ، فلم يصرح به ، ولا نرى له شيئا آخر فى
الانجليز من قريب أو بعيد .

مقطوعاته الوطنية :

وتقرأ له مقطوعات قصيرة فى البيتين والثلاثة يضمنها رأيه
فى وزراء مصر قبل الحرب العالمية الأولى ، بدعابة مسرحية ، كأنها
صورة هزلية فكها مما نشره الصحف اليومية من ذلك قوله فى
مصطفى فهمى الذى كان من الموالين للانجليز مخلصا لهم ، فلما
سقطت وزارته (التى طال عليها الأمد ، وملها المصريون وضاقوا بها
ذرعا) فى سنة ١٩٠٨ قال اسماعيل صبرى .

عجبت لهم قالوا (سقطت) ومن يكن

مكانك يأمن من سقوط ويسلم !

فانت امرؤ الصقت نفسك بالثرى

وحرمت خوف الذل ما لم يحرم

فلو اسقطوا من حيث انت زجاجة

على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

ثم تمر بمصر أحداث ، ويطوح الانجليز بعباس ، ويأتي السلطان حسين كامل بعد اعلان الحماية فيهنئه ، ولكنه كان أشد وطنية من صاحبيه حافظ وشوقي فلم يشر الى الانجليز أى اشارة ، ولم يدع الى التعاون معهم ، أو يثن عليهم ، بل اكتفى بأن هنأه ، وذكر أن الامارة لم تنزل فى أهلها ، وأنهم يتناوبون العرش ماجدا بعد ماجد ، وأن أهل مصر لا يزالون على الود القديم ، الى غير ذلك من المعانى التى تذكر فى مثل هذه المناسبة .

ولكنه يفضل حسينا على عباس ويحتج لاختياره ، ولو أنه اكتفى بماقاله فى البيت الأخير لكان خيرا له ، لأن عباسا حظى منه بأمداح شتى ، رفعتة الى السماكين وكان واجب الوفاء يدعو ، ألا يذم صاحبه الذى مدحه بالأمس ، وألا يدعو الناس للشكر على أن جاء حسين بدلا منه .

وفى هذه التهنئة يقول :

اليوم آن لشاكر أن يجهرا
ان الامارة لم تنزل فى أهلها
والتاج مقصور عليهم ينتقى
والعرش ان أخلاه منهم ما جد
أحسين حبك فى القلوب محقق
فاحرص عليه فهو ملك آخر

بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى
شماا عالية القواعد والذرا
منهم كبيرا للعلاء فأكبرا
ذكر الأماجد منهم وتخيبرا
قد أظهر الاخلاص منه المضمر
ان شئت ملكا جنب ملك أنضرا

الى أن قال :

والبيت (بيت محمد) قد شاده
والعم أكبر حكمة ودراية
حال اذا نظر الأريب جمالها

لبنيه لم يستثن منهم معشرا
بالأمر لو أن الكاير فكرا
شكر الاله وحقه أن يشكرا

ويرى بعض النقاد أن تقلب اسماعيل صبرى فى المديح يدل على أنه لم يكن صادقا فى مديحه لعباس أو حسين ، وإنما يدل على أنه مع الحاكم أيا كان شأن معظم شعراء المديح الذين لا يصدر عنهم فى شعرهم عن عاطفة جياشة صادقة وإنما يعبرون عن مرآة ونفاق ، ورغبة فى الحظوة والمكانة لدى ولي الأمر أيا كان خلقه ووطنيته .

ولكننا لا نميل للأخذ بهذا الرأى لأسباب عديدة ، لأن صبرى لم يكن وصوليا فى شعره ، فقد كان عزوفا عن المناصب ، التى تأتى عن طريق غير وطنى ، التى يتحتم عليه فى سبيل الوصول إليها أن يتخلى عن مبادئه الوطنية ، وإذا كان فضل حسيننا على عباس فلأنه رأى ما فعله عباس بصديقه مصطفى كامل ، وكيف تنكر له وتنكر للحركة الوطنية ، وترامى على أقدام الانجليز ، مما أدى الى قطع مصطفى كامل علاقته به نهائيا (١) . وقد استهان الخديوى عباس حلمى بعواطف المصريين وآثر الدعة والاستقرار على الكفاح فى سبيل تحرير بلاده .

هذا اسماعيل صبرى ، الشاعر الوطنى الصادق عبر بشعره عن وطنيته ولكن فى هدوء وحذر ، يريد الاصلاح والرقى لوطنه عن طريق التعليم والنهضة الصحيحة ، ويخشى التيارات السياسية المتلاطمة ، وتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن وللعاملين المخلصين فى سبيل عزته وكرامته ، والشجوة الحزين على مآسيه والاستمسك بمناقب الغيرة والكرامة والشمم والاباء .

(١) كتاب مصطفى كامل باعث الوطنية ص ٣٣٠ لعبد الرحمن الرافعى .

دعاباته السياسية

ويستخدم فيها صبرى الشعر الرمزي ، رمزية الكلمة ورمزية الجملة ورمزية الصورة وهذه الدعابات كتبها عندما استقالت وزارة مصطفى فهمى وتألقت وزارة بطرس غالى سنة ١٩٠٨ منها ما قاله على ألسنة الوزراء المستقلين ، ومنها ما قاله على ألسنة الوزارات تحية من كل وزارة لوزيرها الجديد فى وزارة بطرس غالى ونشرها بعنوان « على أبواب الدواوين » ، ونشرت جميع هذه الدعابات ممهورة باسم بنتـساؤور ، وهو الشاعر المصرى القديم ، وقد أودع هذه المقطوعات من فكاهاته الطريفة مما ينبىء عن ظرفه النادر .

على لسان مصطفى فهمى باشا عند استقالته

انى استغفر الله لكم	آل مصر ليس فيكم من رجال
فل غربى ما أرى من نومكم	ورضاكم بوجود الاحتلال
بج صوتى داعيا مستنهضا	صارخا حتى تولانى الكلال
لم أجد فيكم فتى ذا همة	ان عدا الدهر عدا أوصال صال
رحم الله وزيراً سامه	قومه ما ليس يرضى فاستقال

على لسان بطرس غالى باشا

بعد ما استقالت وزارة مصطفى فهمى باشا الأخيرة ، وكان بطرس غالى باشا وزير الخارجية فيها ، ويعرض فى هذه الأبيات بما كان يشاع عن مصطفى فهمى باشا من ممالأته المحتلين ، كما يشير الى وطنية بطرس غالى .

أصبحت فى حيرة وهم	ما بين مصر وبين فهمى
هدى تنادى نداء عسان	تلاف أمرى وداو سقمى (١)
وذاك يرجو رجاء خـلـل	له أباد على تهـمى (٢)
دعها تنادى بما تنادى	وكن على خطى ورسـمى
فالسلم درس وقد علمنا	مغبة السلم كيف تحمى (٣)
يارب بابتـول حطنى	وزن مقامى وطهر اسمى
فانى ان بررت خـلـلى	عققت - لا شـك - خير أم (٤)

على لسان عبانى باشا

وزير البحرية والبحرية بعد استقالته مع النظارة الفهمية

يا جنود البر والبحر أشهدوا	واسمعوا منى كليمات فصاح
ذى يدى قد مزقتها لقمم	تجتنى من فوق أطراف الرماح (٥)
ذاك جسمى رسم الدهر على	كل عضو منه أهوال الكفاح

(١) العانى : الاسبير ، تلاف أمرى : أى تداركه .

(٢) الابدى : النعم ، تهـمى : أى تهطل .

(٣) مغبة السلم - عاقبته .

(٤) خير أم : أى مصر .

(٥) تجتنى من فوق أطراف الرماح - كفاية عما لاقاه من المصاعب فى سبيل

العيش وتعذر الرزق فى المناصب العسكرية .

اننى عفت تكاليف العسلا بينكم والعيش فى ظل الصفاح
رحم الله وزيراً عامسلا ملئت فخرا يسداه فاستراح

على لسان حسين فخرى باشا

ان بناء (الخزان) أنهكنى وهد جسمى وزاد فى سقمى (٣)
استودع الله كل ما صنعت يدي وشادت من باذخ همى

على لسان أحمد مظلوم باشا

وزير المالية المستقيل

انا اذا سلبت وظائفنا وتآلفت من غيرنا دول
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

على لسان ابراهيم فؤاد باشا

وزير الحقانية

أستغفر الله من عصر تكفنى
فيه الخبيثان من جاء ومن مال
استغفر الله من (فهمى) وشيعته
ومن (عبانى) ومن فخرى ومن (غالى)
لو استطعت ركبت الناس كلهم
الى الحجاز ركوب الراحل القالى

(١) عفت : كرهت ومللت - الصفاح : السيوف .

(٢) يشير الى ان بناء خزان اسوان كان فى عهد توليه وزارة الاشغال .

على أبواب الدواوين

وهي دعابات شعرية نشرها تحية من كل وزارة لوزيرها
الجديد .

على باب الخارجية

تحية لوزيرها الجديد بطرس غالى باشا رئيس الوزراء

اهلا ببطرس اهلا بالمتنوى المستقيم
قديم كل جديد كل قديم

على باب الداخلية

تحية لوزيرها الجديد محمد سعيد بك

(سعيد) اهلا وسهلا أنت الكبير الصغير (١)
دعنا نقل عن قريب أنت الكبير الكبير (٢)

على باب المعارف

تحية لوزيرها الجديد سعد زغلول باشا

اهلا بسعد وسهلا بالحاذق الفيلسوف
رجعت بدرا منيرا مستهترا بالكسوف (٣)

(١) يشير بقوله (الصغير) الى حادثة عهده بتولى منصب الوزارة اذ ذلك .

(٢) يتفاءل الشاعر لقوله (أنت الكبير الكبير) لمحمد سعيد بأن يتولى رئاسة

الوزارة فى المستقبل .

(٣) يشير بقوله (مستهترا بالكسوف) الى ما حدث فى شأن تولى سعد

لوزارة المعارف من أن الخديوى كان يابى دخوله فى وزارة بطرس غالى باشا ،

لظروف خاصة بينهما اذ ذلك ، حتى اقترح اللورد كرومر ادخاله فيها فكان ما

اقترح .

على باب المالية

تحية لوزيرها الجديد أحمد حشمت باشا

ابعدوا (أحمد) وجاءوا بشأن ظلموه كما أراد الفشوم
فتسلت خزائن المال مظلوم م تولى وجاءها (مظلوم) (١)

على باب الأشغال

تحية لوزيرها الجديد اسماعيل صبرى باشا

قالت الأشغال لما أفلت أنوار (فخرى)
هنتونى هنتونى جاء من يعرف (سرى)

على باب وزارة البحرية والبحرية

عسكرى انجليزى
.....

على باب الحقانية

تحية لوزيرها الجديد حسين رشدى باشا

(أرشدى) سلام مرحبا بك مرحبا
وأهلا بصا فى الروح والقلب والقصد
سيفرح قانونى وترضى شرائعى
إذا زدت من شأنى وأبلغتنى رشدى

(١) تسلمت : تعزت : يقول ان خزائن المال تعزت عن وزيرها السابق مظلوم باشا يناظر آخر مظلوم فى اسناد هذا المنصب الكبير اليه اذ ليس أهلا له فقد ذهب مظلوم وجاء مظلوم .

الباب الثالث

الشعر الفلسفي والصوفي

- الشعر الفلسفي

- اخلاق الناس

- الدواة

- الالهيات

الشعر الفلسفى

مقدمة

اختلف النقاد من قديم الزمن فى شأن العلاقة بين الشعر والفلسفة ، فرأى بعضهم أنها علاقة خصومة وعداوة ، ورأى البعض الآخر أنها علاقة صداقة وتزاوج وكان افلاطون من الفريق الأول ، فقد سلم زمام جمهوريته للفلاسفة ، ونفى منها الشعراء ولم يقبل من الشعر الا تلك الأناشيد التى تتمدح بالآلهة وعظماء الرجال ، كما لم يقبل من الموسيقى الا الأنغام التى تعبر عن الشجاعة وتلهم الاعتدال وحكم النفس .

أما الفريق الآخر ، فكان منهم الشاعر والناقد الانجليزى ، « كولردج Coleridge » وقد قال هذا الناقد (لم يستطع انسان أن يصبح شاعرا كبيرا دون أن يكون فيلسوفا عميقا ، لأن الشعر نتاج معارف الانسانية جميعا) ثم استطرده قائلا (أرى أن لا سبيل الى الوصول الى التفكير العميق الا بواسطة انسان عميق الشعور . كما أرى أن جميع الحقائق أنواع من الإلهام) وهو من ذلك لم ير أن الشاعر ينبغى أن يكون فيلسوفا فحسب ، بل رأى أيضا ان الانسان لن يكون فيلسوفا صادقا الا اذا كان شاعرا .

واعتماد الناس أن يصلوا بين الفلسفة والتفكير العميق ، وان

يصلوا كذلك بين الشعر والاحساس العميق ، وكانت الفلسفة -
وهي حب الحكمة - تعنى البحث عن الحقيقة العارية المجردة ،
بواسطة التفكير المنطقي ، أو كما قال الفيلسوف الامريكى وليام
جيمس William James (وهي مجهود متواصل غير عادى
للتفكير الواضح) واعتاد الناس كذلك أن يروا أن الشعر يستهدف
الحقيقة أيضا ، ولكنها حقيقة لا تتعلق بالأشياء والأفكار قدر تعلقها
بالشعور أى أن الشعر يستهدف حقيقة الشعور ، فالشعراء يدركون
الحقيقة ، بالقاء أضواء من أخيلتهم على العالم الخارجى ، ويعتقدون
أن ما يراه الخيال جمالا هو الحقيقة .

على أننا نستطيع أن نقول بشكل عام ، أنه بينما يحاول العلم
والفلسفة تسجيل الحقيقة والواقع تسجيلا موضوعيا مجردا ،
يحاول الشعر تسجيل حالات الشعور الانساني ، وكذلك تسجيل
الأشياء والأفكار ملونة بالعواطف والانفعالات وذكرا من قبل أن
الشاعر « كولردج » قال أن الشاعر الكبير ينبغى أن يكون فيلسوفا
كبيرا ، وأن جميع المحاولات الناجحة للنفاذ الى الحقيقة كانت
مصحوبة بالشعور العميق أى أن الحقيقة لا تنكشف الا للانسان
بأكمله لرأسه ولقلبه معا . وقد يكون هذا معناه أن أفكار الفيلسوف
المجردة مثلها مثل جسد خلا من الحياة يحتاج الى الشاعر حتى
يبعث فيه الحياة ، ولكن لن يصل الى الصورة الكاملة للتجربة ،
الا من تعلج نفسه بالعواطف والانفعالات فالشاعر الذى يصف
عوجة من موجات البحر ، يصل الى أكثر مما يصل اليه العالم ،
الذى يصف هذه الموجة لأنه يسجل الحقيقة غنية بقيمها وبآثارها
فى النفوس .

أخلاق الناس

قصيدة بعنوان « النجم هالي » .

في سنة ١٩١٠ ، كان النجم المعروف « بمذنب هالي » ،
يقرب من الكرة الأرضية يوما فيوما ، آتيا من حدود العالم
الشمسي ، منذ ظهوره آخر مرة في سنة ١٨٣٥ م ، وهذا المذنب
لا يظهر لسكان الأرض الا مرة كل خمس وسبعين سنة ، وقد
زادت حركته وضوحا من ابتداء شهر مارس سنة ١٩١٠ ، وفي
التاسع عشر من شهر أبريل من تلك السنة وصل المذنب الى أقرب
مسافة من الشمس ، ثم استمر في مسيرة متجها الى عالمنا ، وذكر
الفلكيون أن لهذا المذنب ذيلا طويلا مكونا من غازات سامة وقيل
أيضا ان الشمس ستدفعه الى عالمنا فيصير جو الأرض خانقا
ومميتا . . وحددوا لذلك يومى ١٨ ، ١٩ من مايو سنة ١٩١٠ .
وساد الذعر والهلع نفوس الكثيرين ، وأيقنوا أن في ذلك البلاء
المستطير والفناء لجميع الأحياء على الأرض ، وقد سمي النجم
« هالي » نسبة الى مكتشفه الاستاذ « هالي » الفلكي الشهير .

ويتحدث الشاعر هنا عن الأخلاق الاجتماعية في عهده ،
وكيف انحدر الناس الى مهاوى الرذيلة ، وكيف استهانت الأمم

المستعمرة القوية بالأمم الضعيفة العزلاء ، وضاعت القيم العالية ،
ورخصت المثل العليا بين الناس فى معاملاتها بعضها البعض .

وقد جاء فى هذه القصيدة ما يلى :

- ١ - غاض ماء الحياء من كل وجه
فقد كالح الجوانب قفرا
- ٢ - وتفى العقوق فى الناس حتى
كاد رد السلام يحسب برا
- ٣ - أوجه مثلما نثرت على الأجـ
دات وردا ان هن أبدين بشرا
- ٤ - وشفاه يقلن « أهـلا » ولو
ادين ما فى الحشا لما قلن خيرا
- ٥ - عمرك الله هل سلام وداد
ذاك ام حاول المسلم أمرا

ثم يذكر الدول القوية التى دانت لها الشعوب خوفا واستسلاما
فيقول :

- ٦ - عميت عن طريقها أمم تعامت
أمم فى مغاوز الجهل حيرى
- ٧ - غرها سعدها ومن عادة السع
د يواتى يوما ويخلد دهرها
- ٨ - فتجنت على الشعوب وشتت
غارة فى البلاد من بعد اخرى

ثم يهدد هذه الشعوب المستعمرة الغاشمة

- ٩ - حاذرى يا ذئبات صولسة أسد
منك أقوى نابا وأنفد ظفرا
 - ١٠ - لا تنامى يا أسد ان ذئابا
لم تنم من روابض الغيل أضرى
 - ١١ - عبر كلها الليالى وانكن
أين من يفتح الكتاب ويقرا
 - ١٢ - أنت نعم النذير يانجم « هالى »
زلزل السهل والرواسى ذعرا
 - ١٣ - ظن قوم فيك الظنون وقالوا :
آية أرسلت الى الأرض كبرى
 - ١٤ - ان يكن فى يمينك الموت فأقد
فه شواظا على الخلائق طرا
- ثم يخاطب النجم هالى فيقول :
- ١٥ - هل تلقيت من لادن خاذل البا
غى وحامى الضعيف ياتجم سرا
 - ١٦ - أغدا تستوى الانوف فلا ينـ
ظر قوم قوما على الأرض شلدا
 - ١٧ - أغدا كلنا تراب ولا نملك
خلاف التراب برا وبحرا
 - ١٨ - ان يكن ما يقولون يا نجم فاصدع
بالذى قد أمرت حيث عشرا

فى هذه القصيدة تتدفق الحكمة والمعاني العالية من بين ثناياها،
فى البيت الأول يندد بالاستهتار الأخلاقى الذى ساد فى عهده وفى
السادس يندد بالامم الاستعمارية التى انتشت بخمرة النصر والمجد،
فهان أمامها أمر الشعوب الضعيفة واغتالت حقوقها وأنكرت وجودها،
ولكنه يعود فى البيت التاسع فيحذر هذه الأمم الغالبة الباطشة من
نتيجة استهتارها ، وان هذه الشعوب الضعيفة سوف يحين يومها
لتثور وتبطلش بمن استباحوا حقوقها ، وكأن الشاعر يتنبأ بما
سيجرى بعد نصف قرن من تصفية الاستعمار ومن ثورة الشعوب
ضده واستقلال أمم عديدة فى أفريقيا وآسيا ، وبصفة خاصة النهضة
العظيمة التى نهضتها الدول العربية فى الشرق الأوسط .

وفى البيت الرابع عشر يفيض الشاعر غضبا على سكان هذه
الأرض لتماديهم فى الشر وترديهم فى هوة الموبقات والمعاصى ويرى
أن خير علاج هو إبادة الأرض ومن عليها ولعله يصور فى هذا البيت
الجانب المتشائم من نفسيته .

وفى البيت السادس عشر يشير الى أن الموت هو المساواة بين
جميع الأحياء يستوى فى ذلك الظالم المستعلى ، والضعيف المسالم
والغنى والفقير والأمير والحقير .

وكأنه بذلك يقول : ان الظالم مهما طغى وبغى فلا بد له من
يوم يذل فيه ، يدفن طى الثرى " فليتعظ الانسان ولا يفتر بالدنيا
إذا أقبلت عليه ولا بالأيام إذا ابتسمت له .

الدواة

ومن قصائده الفلسفية ، تلك القصيدة التي نشرت في سنة
١٩١٠ يخاطب فيها الدواة قائلا :

يا دواة اجعلي مدادك وردا
لوفود الأقلام حيننا فحيننا
وليكن كالزمان حالا فحالا
تارة آسنا وأخرى معيننا
أكرمي العلم وانمحي خادميه
ماءك الغالي النفيس الثميننا
وابذلي الصافي المطهر منه
لهداة السرائر المرشديننا
وإذا الظلم والظلام استعاننا
يوم نحس بأجهل الجاهليننا
واستمدا من الشرور مدادا
فاجعليه من قسمة الظالميننا
واقذفي النقطة التي بات فيها
غضب القاهر المذل كميننا

لبراع امرىء اذا خط سطرًا
نبذ الحق وارتضى المين (١) ديننا
واذا كان فيك نقطة سوء
كونت من خبائسة تكويننا
فاجعلها قسط الذين استباحوا
فى السياسات حرمة الأضعفينا
واذا خفت أن يكون من اللف
ظ غلاميد ترجم السامعينا
فابغى بالمداد بخلا وان أعـ
طيت فيه المئين ثم المئينا
فاذا أعوز المداد طيبيا
يصف السدواء دأبا مستعينا
فامنحيه المداد منا وعرفا
واستطبي معونة المحسنينا
واذا مهجة الجمائم أسدت
نقطة سرها الزكى المصونا
فاجعلها على المودات وقفنا
وهبها رسائل الشيقينا
فاذا لم يكن بقلبك الا
ما أعد الاخلاص لاهخلصينا
فاجعله خطى لاكتب منه
شرح حالى لسيد المرسلينا

(١) المين : الكذب .

وهنا يسرح الشاعر بخواطره فى الظروف التى يستعين فيها
الانسان بالدواء ، لأن الدواء تحوى المداد ، والمداد غذاء الأقلام ،
والأقلام يحرر الانسان بها ما يشاء من محررات .

فالمحامى يسجل دفاعه فى مذكراته ، والقاضى يسجل أحكامه
بعد بحثه القضايا والحاكم الظالم ينفذ سلطانه واستبداده بما
يصدره من أوامر وقوانين صارمة ، ممهورة بتوقيعه والا لما كانت
لها قوة النفاذ ، والأديب يكتب نغثات بروحه ، وحببات آماله المتعطشة
للحرية والعدالة ، والطبيب يحرر بطاقة الدواء لشفاء المريض المعنى
الذى يتقلب على فراش من قتاد ؟ والطالب يدون دروسه ومعارفه الى
جميع هؤلاء : يرسل الشاعر حكمته ومشورته ، وآماله وأحلامه ،
وليس غريبا أن تصدر منه هذه الفلسفة وهو القاضى النزيه الذى
عرف قوة الكلمة المكتوبة وأثرها ، سواء كانت لنشر السلام أو
لاشعال الحروب وما تسببه من موت ودمار وخراب ، العقوبات
الرادعة ؟ أم الاحكام المخففة المهذبة ؟ الكلمة ... هى الكلمة
أيا كان أثرها .. ؟ فكم شعوب طغت واتخذت من المعاهدات المكتوبة
.. قناعا مؤقتا .. حتى تعد نفسها وتكون على أهبة البطش بالأمم
الضعيفة المسالمة ؟ وكم من قرار وقعه ملك شديد أو طاغية جبار ،
كان فيه القضاء على مصائر الملايين من العباد ، والفناء لهم وذرايرهم
جميعا ؟

وكم من كلمة صدرت عن داعية للسلام ، أقام بها شعوبيا ،
وأرسي قواعد البناء لمالك طامحة الى الحياة و ... كم من كلمة
رفعت ظلما وأقامت دعائم للعدل والحرية ، وكم من كلمة كانت
أس الويلات والمظالم . ولنا فى أحداث التاريخ المعاصر أقوى دليل
على قوة الكلمة من التصريحات والقرارات ... التى تصدر عن
السياسة والأقطاب والزعماء .

وفي المقطوعة التالية ذات الخمسة أبيات يتجلى الشاعر وهو
مرتد زى المعلم المرشد ، يهدى الناس ويحذرهم من طيش الشباب ،
وغروره وأهوه ويحذرهم أيضا من تمسكهم بعاداته وورثاته ، حتى
بعد أن أفلت منهم زمامه . وولت أيامه ، وعدت شهوره وأعوامه
... فكم من شيخ فقد عقله ، ونسى وضعه وجهل مكانه من
أجيال الحياة وبدا بمظهر مزر بكرامته وانسانيته ، حين يلهو اثر
الشباب يحاول مجاراتهم في مضمار عبثهم ومجونهم ، وهو يعلم
حق العلم أن زمان العبث والمجون ولى وانقضى .

الشباب والمشيبي

نشرت في ١٥ من يوليو سنة ١٩٠٠

لم يدر طعم العيش شبان ولم يدركه شيب
جهل يضل قوى الفتى فتطيش والمرمى قريب
وقوى تغور اذا تثبت بالقوى الشيخ الأريب
بيننا يقال كبا المغفر اذ يقال خبا اللبيب
أواه لو علم الشيبا ب وآه لو قدر المشيب

الحلم والاناه

سنة ١٩٠٩

اذا ما دعا داع الى الشرمرة وهزت رياح الحادثات قناتي
ركبت اليه الحلم خير مطية وسرت اليه من طريق أناتي
وهذان البيتان جمعا من الفطنة والعبرة ما تقصر عنه

المقالات الطويلة والخطب البليغة والمواعظ العديدة ، ويوضحان في بلاغة وإيجاز كيف يطفىء الحلم نار الخصومة والشر .

شكوى الحياة

كم ساعة آلمني سهوا
فتشت فيها جاهدا لم أجيد
وكم سقنتني المرأخت لها
فاسلمتني هذه عنوة
ويحك يا مسكين هل تشتكى
حاذر من الساعات ويل لمن
وان تجد من بينها ساعة
قاله بها لهو الحكيم الذي
وامرح كما يمرح ذو نشوة
فهي وان بشت وان داعبت
عناقها خنق وتقبلها
هذا هو العيش فقل للذي
يا شاكي الساعات أسمع عسى

وأزعجتني يدها القاسية
هنيهة واحدة صافية
فرحت أشكوها الى التالية
لساعة أخرى وبى مايبه
جارحة الظفر الى ضارية
يأمن تلك الفئة الطاغية
جعلتها من غصص خالية
لم ينسه حاضره ماضيه
فى قلة (١) من تحتها الهاوية
محتالة ختالة عادية
كما تعض الحية الباغية
تجرحه الساعة والثانية
تنجيك منها الساعة القاضية

انفعل الشاعر بمشهد رآه فى أثناء زيارته لكنيسة فى فرنسا، وهو شاعر نجواب آفاق ، ومنتجع للجمال يسعى لرؤياه أينما كان، ففى كنيسة ريمز ، (من الكنائس المشهورة بباريس) وهى أيضا من الكنائس الأثرية العريقة بأمجادها الفنية . شاهد ضمن ما شاهد فيها ساعة حائط كبيرة ، مكتوبا على عقربها بالفرنسية ما معناه « كلهن جارحات والأخيرة القاتلة » أى أن ساعات العمر جميعها

(١) القلة : القمة العالية .

طافحات بالجروح والآلام ، والساعة الأخيرة هي الساعة التي ينفذ فيها سهم القضاء بل هي ساعة المنون

تأثر الشاعر لهذه العبارة أيما تأثر ، وألهمته هذه القصيدة التي يفوح منها شكوى الحياة ، ولكنها مع ذلك عامرة بالفتنة والعبارة . .

والحق أن هذه الأبيات قد بلغت من رقة اللفظ ودقة المعنى ، وجمال التصوير ورشاقة التعبير وبراعة السبك وتمام الانسجام حدا بعيدا .

اسماعيل صبرى والموت

راحة القبر

نشرت في سنة ١٩٠٢

ان سئمت الحياة فارجع الى الار	ض تنم آمنة من الاوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم	التي خلفتك للاتعاب
لا تخف فالومات ليس بمباح	منك الا ما تشتكى من عذاب
كل ميت باق وان خالف العنوا	ن ما نص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما	ت فقد عاد سالما للتغراب

موت الحياة

نشرت في سنة ١٩٠٦

مقابر من ماتوا مواطن راحة	فلا تك اثر الها لكين جزوعا
وان تبك ميتا ضمه القبر فادخر	لميت على قيد الحياة دموعا

التزود من الاحباب المودعين

نشرت في ١٩٠٩

- ١ - تزود من الأقمـار قبل أفولها
لظلمة أيام الفراق وطولها
 - ٢ - قرب وداع ينفـع المرء بعضه
إذا رضيت نفس امرئ بقليلها
 - ٣ - غدا تفعل الأشجان بالركب فعلها
وتجتث هاتيك المنى من أصولها
 - ٤ - ويدرى أخو الأشواق سر هلوعه
لذكر النوى والخوف قبل نزولها
 - ٥ - لقد بوغنت تلك المنى فتصرمت
ولم تقض منها النفس : أيسر سؤلها
 - ٦ - أنت رزين أيها القلب في غـد
كعهدك أم سار وراء حمولها
- ولقد نظم الأبيات الأربعة متأثرا ببيتى البحترى وهما :
- ولقد تأملت الفراق فلم أجـد
يوم الفراق على أمرئ بطويل
قصرت مسافته على متزود
منه لدهر صباية وعويل

الثعلب والغراب

محاورة ترجمها الشاعر عن الكاتب الفرنسي المشهور

لافونتين ، نشرت في ١٧/١/١٩١٠

ن نصير في روضة غناء
ة تزدى بالفضة البيضاء
طف من مآكل لصوص الهواء
أنكرتني ثعالب الغبراء
كأ وشر الأشراك بعض الثناء
صائحا ، صادحا كل مساء
لاي ، من أنت من بني العنقاء
آمنا بفضل الغربان أهل العلاء
نك في الفن يا أبا الفضلاء
قك ما لم يفض على الوراق

أبصر الثعلب الغراب على غصن
ورأى قطعة بفيه من الجبن
خير ما تنتقى وأطيب ما تخ
فاشتههاها وقال : ان لم تكن لي
ثم أنشأ يثنى وينصب أشرا
قائلا : يا أمير عم كل صبح
هات ، زدنا علما بقدرك يامو
أغراب ؟ تبارك الله
الق درسا على البلابل غلما
وترنم بمن أفاض على حل

★ ★ ★

فاعتراه مس من الخيلاء
قاه في فسخ أشعر الشعراء
فبكاها ولات حين بكاء
ذن في الحال زاهدا في الغناء
غن غيرى قدحان وقت غدائي

كلمات أصغى الغبي اليها
وتغنى فلم يحس بما ال
بل رأى الجبنة الشهية تهوى
وتلقى اللص الغنيممة واستا
قائلا : طبت يا مغنى الندامى

(الغراب)

لا مريئا يا الأم اللؤماء

أيها الثعلب ارتحل لا هنيئا

(الثعلب)

ذا جزاء الاغرار والجهلاء

أيها الطائر الغبي تعلم

(الغراب)

لاد حواء في ضروب الدهاء

لاقتناص القصر الرفيع البناء
سبل منها كوكب الجوزاء
ناهبا سالبا بلا استحياء
لا تكن - ان عدت - من هؤلاء

لم تزد يا أبا الحصين على أو

(التغات الى المكر في الناس)

ان منا من ينصب البيت فخا
فاذا مد للسماء يميننا
بعضنا لا يزال في اثر بعض
فتعود من هؤلاء وحاذر

الأماني

وندعما فيهدمها النهار
على أنقاضها الفلك المدار
يلها العمر من خبل خممار
تعر دونه الهمم الكبار
اليه أكفها أيد قصار

نبيت من المنى نبني صروحا
فيضحك ساخرا منا وقوفنا
ذرينا من معاقرة الأماني
فكم قربن من أمد بعيدي
وكم أولين من عيال فمدت

الشعر الصوفي

كان ابن الفارض الصوفي شاعرا تجلت دقة حسه ورقة نفسه ورهافة شعوره في شعره ، كما تمثلت في ذوقه ووجدته ، فهو قد جمع في شخصه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما ، أحدهما نبع الوجد الروحي ، وثانيهما نبع الطبع الشعري ، وهو قد اتخذ من الشعر أداة للتعبير عما يعانیه من رياضات ومجاهدات روحية ، وما عرض له من أذواق ومواجيد ، وما انتهى إليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يكاد يصطنع النثر في التعبير عن شيء من هذا كله أو بعضه الا عندما كان يقص قصة واقعة وقعت له ، أو يعقب على كلام ألقى بين يديه ، أما ذات نفسه وأما حياته الروحية فيما بينه وبين ربه ونفسه وأما حبه الالهي الذي ظل طوال حياته مرتلا لأنشودته ترتيلا جميلا ، ومسبعا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مرآته المصورة له ، وأداته المعبرة عنه . ويعد شعره الصوفي قمة شامخة من قمم الشعر الرمزي !!

ومهما يكن من شيء فان لابن الفارض من حيث هو شاعر ، مكانته الأدبية فضلا عن منزلته الصوفية بين شعراء عصره وصوفيته، كما أن لديوانه قيمته الكبرى وخطره ، العظيم بين دواوين الشعر سواء من الناحية الأدبية أو الصوفية .

وقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشعر ابن الفارض
وقد قرأ ديوانه فى مستهل حياته ، وأترع من نبع صوفيته ، وكان
المظنون أن يثمر هذا الاعجاب والاطلاع الشئ الكثير من القصائد ،
ولكن ماوصلنا من مقطوعات قليلة لا يودى الى هذه النتيجة ، وربما
كان لاسماعيل صبرى قصائد أخرى كثيرة فى هذا المضمار ، عفت
عليها يد الاهمال والنسيان لانه لم يكن يعنى بجمع اشعاره وحفظها،
والذين اهتموا بجمع اشعاره بعد وفاته بمدة كبيرة ، وجدوا العناية
الكبير فى البحث والتقصى للحصول على أغلب ما صاغته قريحته
الشعرية وفيما يلي ماوصلنا من اشعاره الصوفية .

الألهيات

بين الخوف من الله والأمل في عفوهِ
وجدت مكتوبة بخطه

خشيت حتى قيل انى لم أثق
وأملت حتى قيل ليس بخائف
فشأنى فى حالى يارب حيرة
أقلنى من الشك الذى قد أحاط بى
مر الحجب ترفع عنك استقبل الهدى
بأنك تعفو عن كثير وترحمهم
من الله أن تشوى الوجوه جهنم
بها أنت من دون البرية أعلم
فشأنى فى حالى يارب مبهم
صريحا وينهج منهج الحق مجرم

هذه من أروع مقطوعاته التى يتاجى فيها الذات الالهية
بروح ورغبة نفسية نقية وإخلاص بالغ ، وفيها صوفية رائعة وحب
ساطع يموج فى نفسه ،

الأمل فى الله

نشرت فى سنة ١٩١١ م

أنا يا الهى عند بابك واقف
ما جئت أطلب أجر ما قدمته
عظمت آمالى وصغرت السورى
انى ليعجبنى وقوفى سائلا
لا أبتغى عنه الزمان عسولا
حاشا لجودك أن يكون قليلا
من ذالها ان لم تك المأمولا
ان كنت أنت السيد المسئولا

وجود الله

قالها سنة ١٩١٨ م

تعالى الله لا يعا سم كنه الله انسان
أتبحث عنه في واد ومنه الكون هـالآن
أتكبره وأنت عليـه هـ - لو فكرت - برهان

التصوف في شعر اسماعيل صبرى

- ١ - يارب أين ترى تقام جهنم
للظالمين غدا والاشرار
- ٢ - لم يبق عفوكم في السموات العلا
والأرض شبرا خاليا للنار
- ٣ - يارب أهلنى لفضلك واكفى
شطط العقول وفتنة الأفكار
- ٤ - ومر الوجود يشف عنك لكى أرى
غضب اللطيف ورحمة الجبار
- ٥ - يا عالم الأسرار ، حسبى محنة
علمى بأنك عالم الأسرار
- ٦ - أخلق برحمتك التى تسع السورى
ألا تضيق بأعظم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل فى الاستعطاف والرجاء ، وهى
من أرقى الشعر الغنائى الصوفى ، الذى يعلو بالعاطفة الدينية
الحالصة الى السماء كما تعلو الصلوات لله عز وجل .

وحين يسبح صبرى فى بحار الخلود ، تشف روحه عن غرامه

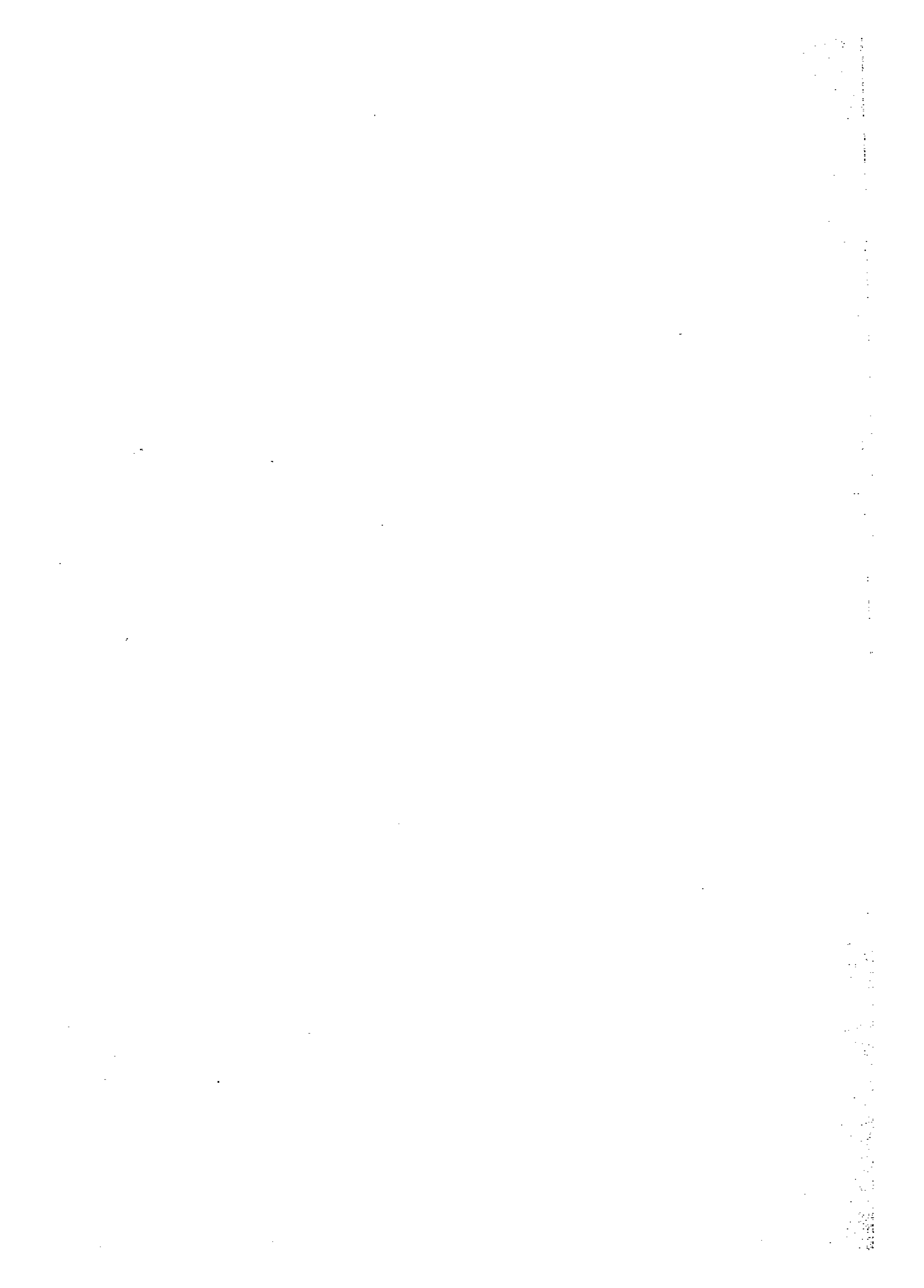
به ، وتوقه اليه ، وشوقه نحوه ، نراه يسبغ على شعره لونا من الصوفية ، ويتجدد في خياله ما وعاه عن شعر ابن الفارض وغزله الالهى الخالد .

و حين يخاطب الذات الالهية قائلا (يارب أين ترى جهنم ؟ كأنه يتخيل الجحيم الذى غاص فى لججه الشاعر الايطالى العظيم «دانتي الليجرى» فهو يناجى الذات الالهية مستمطرا رحمتها ، راثيا لحال الانسانية جمعاء ، بما تعانيه من ضعف وتخلف فى مضمار الروحانيات ، وقصورها عن ادراك الحقائق السرمدية العلوية ، التى يرغب الله سبحانه وتعالى عباده فى أن يتجهوا لادراكها عن طريق بصيرتهم لا نظرهم ، وايمانهم الروحى لا ايمانهم الحاسى .

وهو حين يناجى الموت ويتمناه ، يرسم لنا صورة شاعر تقى ورع ضجر من الدنيا وما بها من متناقضات ، وضج من هياج الناس وتصايحهم للفوز بمغانم الحياة ولذائذها المادية وهى الى الفناء والزوال بل ضج من الحياة وما فيها من معارضات بين القيم الروحية «الخالدة» والقيم المادية الزائلة فهو يحن الى عالم الروح . . . عالم الخلود . . . عالم ماوراء الموت . . . وحسبه فى ذلك الأمل البعيد فى حياة لا يعقبها فناء أو شقاء .

ويقول فى هذه المناجاة :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى



الباب الرابع

الغزل عند اسماعيل صبرى

الغزل عند اسماعيل صبرى

مقدمة :

لعل الحب هو أهم موضوع شغل به الشاعر العربى ، فمنذ الجاهلية يغنى الشعراء حبهم ويصورون انفعالهم واحساسهم تجاه من يعشقونهم . وكانت النزعة المادية تغلب عليهم اول الامر ، فهم يصفون المرأة وصفا حسيا وقلما وقفوا عند وصف روحى نبيل ؛ لأن ظروف حياتهم الوثنية حينئذ كانت تدفع الى هذا النوع من الغزل المادى الصريح . فالشاعر لا ينكر نفسه ولا حبه الحسى .

ولما جاء الاسلام أخذ الغزل يتطور بحكم ما أصاب تلك النفوس التى تنطق به من سمو ونبيل ، وسرعان ما ظهر نوع جديد من الغزل العذرى الذى نشأ فى نجد وبادية الحجاز ، والذى يترجم عن لواعج الحب ترجمة صادقة تعبر عن مواجد الشاعر وأذواقه وأشواقه وما يحسه ازاء الدين من مجاهدات تنقى نفسه وضميره وتشعره غير قليل من الحرمان فيحزن . وتضيف الصحراء بسكونها ووجومها حزنا الى حزنه الروحى ، فينظم هذا الشعر الغزل الحزين الذى يجد فيه قارئه غذاء روحيا لا يقدر .

ومن أروع الأشياء أن يرجع الانسان الى كتاب الأغاني .
ويقرأ ترجمة مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس ولبنى وأضرابهما من
شعراء الغزل العذرى الذى يفصح عن رقة رقيقة ودقة فى الحس
والشعور .

ولا يعنى هذا أن كل الشعراء فى العصر الاسلامى استحالوا
الى هذه الصور النقية السامية من الغزل ، فقد بقيت آثار من
الغزل المادى الجاهلى عن شعراء المدن من أمثال ابن أبى ربيعة ، ولكن
ما لا شك فيه أن الغزل عند هؤلاء الشعراء خطأ خطوات جديدة
نحو رقة الحس ورهافة الشعور حتى اذا انتقلنا الى العصر العباسى
وما اضطرب فيه الشعراء من اثم وفحش ومجون ، رأينا كثيرا
منهم يفرقون فى الغزل المادى ، وينحطون الى تصورات جنسية
شائنة فيها ايماءات اثاره وفيها غريزة من أمثال هؤلاء بشار
وأبو نواس فنراهم لا يجدون حرجا فى أن يتحدثوا حديثا صريحا
عن نزوات الغريزة النوعية وكأنما لم يعد هناك حياء ولا ما يشبه
حياء .

ومع ذلك فنحن لانعدم أسرابا من الغزل النقى عند العباس
الأحنف وأضرابه مع أنهم لم يكونوا يمثلون الذوق العام . فالذوق
العام أصابه وباء المجون وما يصحب المجون من صفائر ونقائص .
وعلى هذا النحو أصبح الغزل فى أكثره غزل غرائز وان كان ذلك لم
يمنع من تحليل مشاعر العشاق للجوارى الفاتنات فقد تدل الجارية
على عاشقها ، وقد تصيبه من الصد والاعراض ، وقد تمتنع عليه
امتناعا ، فتفتح للفتنة بها فى قلبه أبوابا من الحنين والبكاء والتفجع
والشوق واللهفة ، فتقترن بصورة الحب الغريزى صورة الحب
المحروم ، وما يبعثه من لوعة وحرقة وحزن ودموع .

وفى هذه الأثناء تتطور حياة الزهد فى الاسلام ، وتتحول
تحولا صوفيا من الشوق الى ثواب الجنة الى الشوق الى رؤية الله جل
جلاله ، والنعيم بجماله الأزلى ، ويصبح كل متصوف كأنه مجنون
ليلي فهو يغنى الهه حبه وحنينه ، وأشواقه ومواجهه .

ويأخذ المتصوفه فى نظم أشعار ، تصور هذا الحب للجمال
المطلق ومدى ما يصهرهم به من نيرانه . وقد وجدوا فى الحب العذرى
الاسلامى بذورا لتصوير ولهم لمحبووبهم وهيامهم به ، وهى بذور لم
تلبث أن تحولت عندهم الى أشجار باسقة يانعة ، أغنت أدبنا بأزهار
وجدانية رائعة ففيها جمال لا تشرق به قلوب العارفين من المتصوفه
فحسب ، بل تشرق به جميع القلوب وتضيئ لما يشتمل عليه من
فسحة ومن معان روحية ، وحتى عناصر الحب القديم المادية
استطاعوا أن يحولوها الى تصوير أحوالهم الوجدانية .

ومن هنا كثر عندهم الغزل الحسى أو قل كثر اقترانه بغزلهم
الروحي النقى الخالص ومن أظرف الأشياء حقا أن يقرأ الانسان فى
هذا الغزل الصوفى ما يصوره من جمال الذات العلية ، وما يعبر
عنه من اقبالها على المحب ، وصددها عنه وشوقه اليها . وبهجته
بوصلها وحزنه وألمه وحنينه لبعدها .

ولقد كان لغزل المتصوفة تأثير رائع فى القلوب ، وكان الناس
يجدون فيه ما يغريهم عن الحياة السياسية والاجتماعية الفاسدة ،
التي صاروا اليها فى القرن الرابع وما بعده ، اذ شعروا فيه بشيء
من الطمأنينة والراحة .

وتدور بالغزل عند العرب دورات من الزمن تجمد فيها معانيه
فى أكثر الأقاليم العربية وعند أكثر الشعراء ، فقد تحولوا الى

أصداف من التشبيهات - والاسـتعارات وألوان البديع المختلفة
وهي أصداف قد تروق بـبريقها ولـمـعانها ولكنها لا ترضى الشعـر
ولا تصادف هوى النفوس لأنها لا تعبر عن فطرة ولا بساطة وإنما
تعبر عن تصنع وتكلف ، ولكن من الحق أن هذا لم يشمل جميع
الأقاليم الإسلامية ولا شمل جميع الشعراء ، فقد كان من بينهم
من يستمد من الفطرة والطبيعة ومن يرتفع بشـعره عن زخرف
البيان والبديع اللفظي ، فينبض غزله بالعاطفة الصادقة وتتدفق
فيه خواطر الحب ومعانيه .

وربما كانت مصر أكثر الأقاليم العربية عناية بهذا الغزل
الوجداني الطبيعي وحقا نجد بعض شعرائها يتشبهون بشعراء
الأقاليم الأخرى ، فيحيلون غزلهم الى مرصعات ومصنفات ، بل
يحولونه الى زخارف دقيقة مثل القاضى الفاضل وتلاميذه ، وهؤلاء
لا يعبرون عن الروح المصرية العامة حينئذ ولكن يعبر عنها البهاء
زهير وأضرابه ممن يرفضون التكلف فى عزلهم ، ويطلبون أن يكون
فيضا من الشعور الصادق والحس المرهف الذى لا تحجزه عوائق
البديع ولا عوامل الصناعة .

فنه الغزلى :

يمتاز غزل اسماعيل صبرى بالرقّة والعدوبة ، فله غزليات
تجيش بسيل دافق من العاطفة والوجدان .

وقلما تحس فيها بتكلف أو ما يشبه التكلف ، وإنما تحس
بصدق الشعور الذى يأخذ بمجامع القلوب .

وكانت ظروف حياته الرغدة ، تتيح له ألا ينظم الا فيما تواتيه
السجية وكان له منتدى يجتمع اليه فيه كثير من أهل الظرف
والرقّة فى عصره ، فكانوا يؤكدون هذين المعنيين فى نفسه ، وكانت
هناك نواد أهم من ناديه أثرا وتأثيرا فى روحه ولا نقصـد نوادى

الرجال أمثاله ، وانما نقصد نوادى السيدات من أمثال « هى »
وكانت تجرى ناديا على طريقة الادبيات الفرنسيات من صواحب
« الصالونات » وكان يختلف اليه كبار الادباء والمفكرين المصريين
فى أوائل هذا القرن كما كان يختلف اليه اسماعيل صبرى .
فيستمع الى الأحاديث الناعمة والمحاورات الرقيقة مع المرأة فيتأثر
بذلك فى صميم نفسه ، ويكون سببا من أسباب رقة حاشيته .

وإذا كان اسماعيل لم يقبل على الشعر اقبال المتكسب ، بل
اقبال الهاوى الذى أتاحت له ملكة شعريه ، فلم يستغلها فى
معارضته للقدمات وانما استغلها فى تدوين الخواطر التى جاشت
بهانفسه وكانت نفسا رقيقة ، ودعمت الرقة فيها مؤثرات من
بيئته المصرية وما اشتهرت به من عذوبة الروح ، كما دعمتها نوادى
النساء التى كانت تخلع البهاء والجلال على المرأة ، فلم يعد هدفه
مجاراة المتنبي وغيره من شعراء القصيدة العربية الجزلة الرنانة ،
وانما هدفه مجاراة شعراء الوجدان الرقيق ورقائهم ومقطعاتهم
القصيرة .

وقد منح دوقا رفيعا وحسا دقيقا فاستوفى الرقة من أطرافها
ولا تشك أنه قرأ كثيرا للبهاء زهير الشاعر المصرى الرقيق فقد
كان المصريون فى عصره يعجبون به .

كما لا نشك أنه قرأ كثيرا لابن القارض الشاعر الصوفى
المصرى ، وكانت هذه القراءات تؤثر فى نفسه ومظهرها واضح فى
شعره ، فهو يتغزل غزلا وجدانيا على طريقة البهاء ، وهو يناجى
ربه ، ويبتهل اليه كثيرا ، ويستشعر فى قرارة نفسه خضوعا
له وإخلاصا لوجهه على طريقة ابن الفارض ، وإن كان لا يعشق
الذات الالهية عشقه ، ولا يطلب الفناء فى الهه ولا يتعمق فى
مواجهه وأذواقه الصوفية .

ومسح هذا الجانب عنده على غزله ، ففيه شيء من التصوف والتسامى الروحي ، والحق أن مؤثرات كثيرة أثرت في غزله ، بعضها من نفسه وظروفه وبعضها من بيئته وعصره فاستوى في هذه الصورة النقية التي لا يشوبها أى شيء من أدران الجسد ونزعاته . فليس في القدود والنهود ورقة الخصر وكثافة الردف وغير ذلك مما يثير الغرائز ، وإنما فيه السمو والطهر الذى تعشقه الأذواق الرفيعة ، وليس فيه ما يخدش الحياء ، فهو غزل أصفى وأروع ما يكون النقاء غزلا ولا يدفع اليه الميل الجسدى الذى يشترك فيه الانسان والحيوان . وإنما يدفع اليه ما يحدث الجمال في الروح والعقل من لذة وألم ، ومن خير ما يمثل ذلك من شعراء ، القصيدة التي يصف فيها من سماها « لواء الحسن » فكل الناس يقتربون منها في اجلال وخشوع ، يريدون أن يستظلوا بظلال هذا اللواء وينعموا بما يصور من فتنة وحسن وجمال بقوله :

أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فاجمعي الأمر وصونى الأبرياء
فيه للانفس رى وشفاء
دون بعض وأعد لي بين الظماء
سفن الامال يزجيهما الرجاء
بين لجين عناء وشقاء
تقتفيها شدة هل من رجاء ؟
بقبول من سجايك رخساء
تحت عرش الشمس في الحكم سواء
ضمته من معدات الهناء
لتوارى بلثام أو خباء
أن روضا راح في النادى وجاء
ناثر الدر علينا ما نشاء

يا لواء الحسن أحزاب الهوى
فرقتهم في الهوى ثاراتهم
ان هذا الحسن الماء الذى
لا تلودى بعضنا عن ورده
أنت يم الحسن فيه ازدحمت
يقذف الشوق بها في مائج
شدة تمضى وتأتى شدة
سأعفى آمال انضاء الهوى
وتجلى واجعل قوم الهوى
اقبل نستقبل الدنيا وما
واسفري تلك حل ما خلقت
واخطرى بين النمامي يحلفوا
وانطقى : بشر اذا حدثنا

وابسمى من كان هذا ثغره
لا تخافى شسظا من أنفس
راضت النخوة من أخلاقنا
فلو امتدت أمائنا الى
انت روحانيه ، لا تدعى
وانزعى عن جسمك الثوب بين
وأرى الدنيا جناحى ملك

يملا الدنيا ابتساما وازدهاء
تعثر الصبوة فيها بالحياء
وارتضى آدابنا صلق الولا
ملك ما كدرت ذاك الصفاء
ان هذا الحسن من طين وماء
للملا تكوين سكان السماء
خلف تمثال مصوغ من ضياء

وأنت ترى صبرى يصور جمال فتاته تصويرا هادئا ،
فعاطفته متئدة ، وهو يصور هذا الجمال فى خشوع لا ترى فيه
نزوة ولا عارضا حسيا من عوارض الجسد ، بل هو يرتفع حتى عن
نفسه ، فهذه الفاتنة لا تفتنه وحده بل تفتن كل من يراها فى النادى
معه .

ويعلق بعض الكتاب على هذه القصيدة بأن اسماعيل صبرى
يخالف فيها غيره من الشعراء فى حبهم والاستثثار بالحسن ،
ويرغب الى الحسناء أن تسوى بين محبيها فى التمتع بالنظر الى
حسنها الباهر . وكأنى بهؤلاء الكتاب لم يلاحظوا أن صبرى فى هذه
القصيدة لا يريد أن يصور حبه وانما يريد أن يصور حبه وحب
غيره ليصل الى ما يريد أن يصنعه من هذا الجمال الذى يملك على
الناس جميعا مشاعرهم وقلوبهم وعقولهم .

انه جمال ينشر الحب والفتنة فى كل نفس ، وقد عرف كيف
يصوغه دون أن يعرض لشيء مادي فيه ، بل لقد تجاوز به المنادة
وجعله روحانيا خالصا . فصاحبته ليست من طين وماء وانما هى
من سكان السماء أو كأنها تمثال مصنوع من ضياء وهى لذلك
لا تتعلق بها رغبات النفس ولا نزواتها ومن ثم لم تكن لصبرى وحده
بل هى للناس جميعا يلتاعون ويبتهجون بلقائها وهو يشبه شمائلها

وسجاياها بالريح اللينة لرقتها ولطفها ويطلب اليها أن تشمل
محببها بضوتها كما تشمل الشمس الكون بنورها ويقول لها :

لا تخافي شططا من أنفسي تعثر الصبوة فيها بالحياء

وهي صورة رائعة مثل فيها نفوس جلسائها تفتن بها فتنة
تكاد تخرجها عن حدودها فتعثر بالحياء ، وكل ذلك رقة مفرطة ،
رقة في عدم الأثرة بمحبوبته ورقته في وصف عاشقيها ووصفها
وكأنها ملك ، تحول قد سيته دون لمسه **ولعلها هي نفسها التي**
يقول فيها :

(نشرت في ١٩٠٩)

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صلي	متيما أنت في الخالين دنياه
زينى الندى وسيلى فى جوانبه	لطفاً يعم رعايا اللطف ريباه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة	هن الرياحين حباناً بها الله
ان غاب ساقى الطلا أوصد لآحرج	هذا جمالك يغنيا محييا

وهو فى هذه القطعة كما فى سابقتها ، يقف أمامها فى اجلال
وخشوع مع أنها راحة القلب وشغل الفؤاد ، ولكن لا تحدثه نفسه ،
الا بوصف لطفها ، وأنها كالزهرة فى الصحراء المجدبة ، أرسلتها
العناية الالهية لا لتمس وانما لتحنى من بعيد فهو يحيط نفسه بجو
حقيقى من الحب الروحى . . كل ما يأمله منها لقاء أو نظرة .

يا ظبية من ظباء الأنس راتعة
بين القصور تعالى الله باريك

هل النعيم سوى يوم أراك به
أو ساعة بت أفضها بناديك

وهل يعد على العمر واهبسه
ان لم يجمله نظم الدر من فيك
ان قابلتك الصبا في مصر عاطرة
فأيقنى أنها عنى تناجيك
وانها حملت في طي بردتها
قلبا بعثت به كيما يحييك

فكل ما يطمح اليه منها ، أن يمتع طرفه برؤيتها ساعة أو لحظة
وهو يكثر من النداء في غزله وكأنه يريد بمناجاته أن يطرب
الوجدان ويحركه ، كما يكثر من النداء بكثير من صيغ الاستفهام
والسؤال ، فيفتن في المناداة والخطاب ؛ ويفتن في المناجاة والحوار
افتنانا يؤثر في النفس ومن مشهور نداءاته هذه المقطوعة (نشرت سنة
١٩١٣ وقد غنتها كوكب الشرق أم كلثوم في أول حياتها الفنية)

يا آسى الحى هل فتشت في كبدى
وهل تبينت داء فى زواياها
أواه من حرق أودت بأكثرها
ولم تنزل تمشى فى زواياها
يا شوق رفقا بأضلاع عصفت بها
فالقلب يخفق ذعرا فى حناياها

وهو يصور نفسه هنا مريضا بالكبد ، ويثن حتى لتظن أن
أنينه يتمشى فى أنفاسه وهو يتعذب بحبه وحرقة لوعاته ، فالحب
يصهره وينذيب أضلاعه بل يكاد يحطمها حطما ويحطم ما وراءها من
قلبه وفؤاده ومن بديع غزلياته التى غنتها أم كلثوم فى مطلع حياتها
الفنية هذه الأبيات التى نشرت سنة ١٩١١ :

أقصر فؤادى فما الذكرى بذفة
 سلا الفؤاد الذى شاطرته زما
 ما كان ضركا ذ عاقت شمس ضحى
 هلا أخذت لهذا اليوم أهبتسه
 لهفى عليك قضيت العمر مقتحما
 ولا بشافعة فى رد ما كانا
 حمل الصباية فأخفق وحدك الآنا
 لو اذكرت ضحايا العشق أحيانا
 من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
 فى الوصل نارا وفي الهجر نيرانا

وهو يخاطب فؤاده فى هذه القطعة ، ويطلب منه أن يكف عن
 الأمل فى فاتنته مع غير قليل من الحسرة وبل مع شدة الحسرة
 وشدة اليأس منها ، فقد سلا فؤادها ولا يزال فؤاده يخفق بحبها
 وهو يقول له انك من ضحايا العشق الكثيرين .

وصبرى يستمد فى هذه القطعة وسابقتها من غزل العذريين
 الذى يمتلىء بالحزن ويفيض بالألم لما يستشعره العاشق من اليأس
 فى لقاء محبوبته ووصالها واقبالها عليه .

والحق أن صبرى يبلغ فى غزله الوجدانى قمة قلما يدانى به
 فيها شاعر مصرى من جيله لا لأن شعراءنا لا يثنون ولا يكون فى
 غزلهم ولا لأنهم لا يرتفعون بمحوباتهم فى مراقى الحب الروحى ،
 ولكن لأنه قصر نفسه على ذلك ، وعبر عنه تعبيرا طبيعيا فيه رقة
 وفيه عذوبة وفيه قرب شديد الى النفس ، وهو قرب لا نجده فى
 المعانى وحدها بل نجده أيضا فى الصيغ والألفاظ ، وأرجع الى
 البيت الأول فى المقطوعة الاخيرة .

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة
 ولا بشافعة فى رد ما كانا

فانك تجده يستخدم العبارة الشائعة فى عاميتنا المصرية ، اذ
 يقولون عن شىء أو شخص انه « لا ينفع ولا يشفع » .

وقوله فى دموعه وما تخط من شكواه :

ويلمحا اللاحى فيرثى لصبوتى ويقرؤها الواشى فيرحم حالى

وقوله السابق :

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صالى متيما أنت فى الخالين دنياها

فكلمة يرحم حالى و « يا راحة القلب » من الكلمات التى تدور على ألسنة المصريين ولم يكن يقف فى هذا التعبير عند معانى الغزل بل ، كان يعممه فى موضوعات شعره المختلفة ، وكان يعرف كيف يدخلها فى أساليبه وكيف يؤديها أداء حسنا ولم يكن يعمد الى تخيلات بعيدة ولا صناعة معقدة فنفسه نقيه صافية ، لا تعرف التعقيد والتكلف بل رقيقة رقة مفرطة وهى رقة يمسح عليها الحزن فيزيدها لطفا وروعة .

ونختم دراستنا فى شعره الغزلى بهذه المقطوعات الرائعة ،
التي تفيض رقة وعدوبة .

قال فى قطعة بعنوان « موعد لقاء » نشرت فى سنة ١٩١٣

خبرونى اليوم انى فى غد
كيف يبقى من قضى الليل على
رب كن عسوى واخرنى الى
يا أساة الحى لو أجلتم
رب داء لا يرجى برؤه

مالى عينى منها ويىدى
جرف هار الى ذا الموعد
أن أرى شمس الضحى من عودى
رأيكم فى الى يوم غد
قد شفته زورة من مسعد

مقر الغزال

يامقر الغزال قد صح عندى ال
وابنى فيك ما أرى من عيون
وضلوع جاءتك وهى خوال

يوم انى اقتحمت منك عرينا
بات يغرى بها السواد عيوننا
ثم عادت مالى هوى وشجوننا

ما الذى يبتغى غزالك منى
كلما قلت قد ابل فـؤادى
وقال ايضا :

يا من اقام فـؤادى اذ تملكه
ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفديك أعين قوم حولك ازدحمتم
عطشى الى نهلة من وجهك الحسن
وتستعيد اذ أفتك مبتسما
عن لؤلؤ بالنهى حرزا عن الفتن
جردت كل مليح من ملاحظته
لم تتق الله فى ظبي ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته
تملكه فى أوجه عبدا بلا ثمن
وقال ايضا :

نغر الحبيب

نشر هذان البيتان سنة ١٩١٣

يا موردا كنت أغنى ما أكون به
عندى لئالك والأقداح طوح يدي
عن كل صاف اذا ما بات يرويني
ملاى دن الماء شوق كاد يرديني

وقال ايضا :

الى نزيل الفؤاد

لما تبسوا من فـؤادى منزلا
ناديته مسترحما من زفرة
رفقا بمنزلك الذى تحتلسه
وغدا يسلط مقلتيه عليه
أفضت بأسرار الضمير اليه
يأس يخرب بيته بيديه

شعر الحبيبة

ارسل الشعر خلف ظهرك ليلا واعقدية من فوق رأسك تاجا
انت في الخالتين بدر نراه صادعا آية الدجى وهاجبا

حشاشة الصب

ان الذى ابقيت فى مهجتى يا متلف الصب ولم يشعر
حشاشة لو انها قطرة تجول فى عينيك لم تنظر

الطيب

ياحاجبا عن عيونى طيف صورته ابعثه مستترا فى ليلة الأرق
ولا تخف من ضيا صبح الجبين فقد عرفت سواد الشعر والحلق

الى حسناء

وجدت هذه الأبيات مكتوبة بخط يده على غلاف مطبوع فى

سنة ١٩٠٧

يا فتاة الحى قد اذكرتنا نظرة الروض وميل الفصن
أى لحن ترجمت تلك الخطأ عنه للعين هنا والأذن
عارضى البدر اذا لم يعترف لك بالحسن بوجه حسن

وقل هذه الأبيات عام ١٩١٣

تمسى تذكرنا الشباب وعهد حسناء مرهفة القوام فنذكر
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما أو فى على قدر الكفاية يسكر
تثب القلوب الى الروس اذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد فإذا دنت من نحورها تستغفر
وتزيد فى فهمها اللآلى قيمة حتى يسود كبيرهن الأصغر

ولعل روعة شعره الغزلى تتجلى فى هذه القصيدة التى نشرها سنة

١٩٠٩ وعنوانها :

(ساعة الوداع)

أتزودت من ضياء البدور
أملات العينين من قبل أن يد
صفرت راحتك الا من الذك
أترى أنت خاذلي ساعة التو
وبك ، قل لي متى أراك بجانبى
لست بعض الحداة بر أنت بعضى
ساعة البين قطعة أنت قلت
لا تحينى ، روحى الفداء لما حيك

لليال كثيفة الديجور
همك البين من بهاء ونور
رى ، وذكري ما مر زاد الفقير
ديع يا قلب فى غدا أم نصيرى
راضيا عن مكانك المهجور
قف قليلا فليست بالمأجور
للمحبين من عذاب السعير
غدا من صحيفة المقصور

وكتب تحت بيتين قالتها الأديبة الكبيرة المرحومة « مى » وهما :

فديتك يا هاجرى
سهرت عليك الدجى
فكتب هو :

فهل ترتضى بالفلدا
ونعت ولكن سلى

أهاجرتى اطفئى
مضت فى هواك السنون
إذا قيل مات الأديب
لواعسج لا تنتهى
وما نلت ما أشتهى
بفائنة أنت هى

فلما قرأت آياته كتبت تحتها :

زمانك قبل انتهى
فحسبى أن ازدهى
ولا يرجع المنتهى
وحسبك أن تشتهى

ثم يشكو نواها ويدعوها الى التواصل :

أبتك ما بى فان ترحمى
وأشكو النوى ما أمر النوى
رحمت أخالوعة مات حبسا
على هائم ان دعا الشوق لبي

واخشى عليك هبوب النسيم
واستغفر الله من برهة
تعالى نجد زمان الهنساء
تعالى أذق بك طعم السلام
وان هومن جانب الروض هيا
من العمر لم تلقني فيك صبا
ونتهب لياليه الغر نهبا
وحسبي وحسبك ما كان حربا

ثم أرسل لها بيتين يهئتها فيها بعام جديد :

ياغرة العالم جوزى الأفق صاعدا
يا « مى » قولى معى آمينسا
الى السماء بآمال المحبينسا
صافية

وسوف نعرض فى موضع آخر ، الدور الأدبى الذى قام به
صالون « مى » وأثره فى المجتمع المصرى آنذاك ، وكان اسماعيل
صبرى من المعجبين بشخصية صاحبتة ومن المواظبين على ارتياده .

البساب الخامس

الشعر الاجتماعي

- الوحدة القومية
- شعر المراثي
- الصالون الأدبي بقصره
- المدائح والتهنيت
- تقدير اسماعيل صبري للمرأة

الوحدة القومية :

يتكلم الاستاذ عمر الدسوقي فى كتابه « فى الأدب الحديث »
عن شعر اسماعيل صبرى الاجتماعى فيقول « أما اسماعيل صبرى
فليس له فى هذا الموضوع قليل أو كثير ، وكأن مصر ليس بها
فقراء معدمون ، أحلاس مسغبة وأنى لصبرى أن يصف الفاقة
والبؤس وأهلها ، وقد عاش عيشة مترفة منعمة » .

وقال عنه الدكتور طه حسين فى المقدمة التى صدر بها
الديوان « وكيف السبيل لطالب من طلاب الأزهر ، أو من طلاب
الجامعة القديمة ، شديد الحياء ، أن يتصل بهذا الرجل
الارستوقراطى ، الذى كان يشغل منصبا رفيعا من مناصب الدولة ،
ويلقب بلقب رفيع من ألقابها ، ولا يجلس حيث كان يجلس الشعراء
فى هذه القهوة أو تلك ولا يختلف الى حيث يختلف الشعراء فى
هذا النادى أو ذاك » .

رغم هذا فان اسماعيل صبرى قد لمس بشعره مشكلة اجتماعية
خطيرة ، تعد من أهم ما تعرض له الوطن فى أوائل القرن العشرين
من مشاكل ، فقد أصاب الوحدة القومية بين عنصرى الأمة الأقباط
والمسلمين صدع كاد أن يودى الى نتائج لا تحمد عقبها ، فقد

اعتدى في عهده على المرحوم بطرس غالى باشا رئيس مجلس الوزراء في ٢١/٢/١٩١٠ ، وكان المعتدى شابا مسلما من شباب الحزب الوطنى ولحداثة عهد البلاد بالقتل السياسى ، اختلف الناس في بواعث الجانى لارتكاب جنايته وقد اثار ذلك موجة من السخط والبغض بين كثير من عظماء الأقباط ، وأدى ذلك الى انصراف كبيرين من الأقباط عن نشاطهم فى الحزب الوطنى ارضاء للفريق الساخط وهما المرحومان مرقس حنا وويصا واصف وكانا عضوين فى اللجنة الادارية للحزب .

وكان اسماعيل صبرى صديقا حميما لبطرس غالى ، فرثاه بمرثية رائعة دلت على سماحة وروح وطنية عالية ، من شاعر مسلم فد ، ومشاركة عاطفية للأقباط فى مصابهم على لسان أكبر شاعر له مكانة أدبية فى عصره : جاء فيها :

- | | |
|-------------------------------|---------------------------|
| ١ - تبكى المروءات على بطرس | ذاك الهمام الماجد الأزوع |
| ٢ - فتشيت - نا لم أجد مقلتي | كفؤا - عن الفضل ليبنى معى |
| ٣ - فقيل لى : قد سار فى أثره | يوم دفناه ولم يرجع |
| ٤ - يا مجريا دمع الملا أبحرا | أدركهم يا مرقى الأدمع |
| ٥ - يا نازلا بين وفود البلى | آنستهم يا موحش الأربع |
| ٦ - عيني فيك اليوم قطيعة | تروى الاسى عن مسلم موجع |
| ٧ - يهيم من وجد ومن لوعة | فى الجانب الأيسر من اضلعى |
| ٨ - يا من سقانى الجم من وده | هنا ودادى كله فاكرع |
| ٩ - يا حامل القلب الكبير الذى | لم ينقض الميثاق قم واسمع |

ولقد ظن الاقباط أو كثيرون من الطبقة المثقفة فيهم ، أن قتل المرحوم بطرس غالى باعتباره أكبر مصرى مسيحي وصل الى مركز رئاسة الوزارة ، ما هو الا بداية لانتقام رهيب من الاغلبية المسلمة للأقلية المسيحية ، فحاولوا النظر فى أمورهم ودراسة موقفهم ،

فقدوا بمدينة أسيوط في ١٩١١/٣/٦ المؤتمر القبطي ، وطلبوا فيه من الحكومة عدة مطالب ، ظنا منهم أن المسلمين قد استأثروا بكل شيء في البلاد دونهم . فاجتمع المسلمون للرد عليهم في مؤتمر سموه المؤتمر المصري أو الاسلامي وتوالت جلساته خمسة أيام من شهرى أبريل ومايو سنة ١٩١١ ، وعقد المؤتمر في مصر الجديدة .

وكان لهذا المؤتمر غرضان : أولهما النظر في حال المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، والثانى الرد على مطالب الاقباط التى طالبوا بها فى مؤتمرهم وشبت نار الفتنة بين العنصرين ، وسعى أهل الشر فيها سعيهم وقد ذكر الاستاذ الكبير والمؤرخ الوطنى الراحل عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « محمد فريد » ص ٢٧١ بالنسبة لهذا الحادث ما يأتى :

« فى خلال غيبة الزعيم محمد فريد فى سجنه ، حدثت فتنة الخلاف بين المسلمين والأقباط وانهقد المؤتمر القبطى بأسيوط فى شهر مارس سنة ١٩١١ ثم المؤتمر المصرى بمصر الجديدة فى أبريل ومايو سنة ١٩١١ ردا عليه : وكان كلا المؤتمرين مظهرا يؤسف له من مظاهر الخلاف بين المسلمين والأقباط ، وكلاهما قد اجتمع والزعيم فى سجنه ، ولو كان حرا طليقا لما رضى لهذه المظاهرة ولنصح باجتنابها ، ولأمكنه أن يعيد التفاهم بين الفريقين لأنه هو ومصطفى كامل أول من وضعوا أساس الوحدة القومية ، وجعلوا الوطنية عقيدة لجميع المصريين على السواء ، ومثل هذه المظاهرة لم يفد منها سوى الاحتلال ولم تصدر عن نظر سليم فى الأمور ، ولقد قيل وقت انعقاد المؤتمرين ، ان يد السير الدون غورست المعتمد البريطانى لم تكن بعيدة عن الدعوة اليهما ، ومما يؤيد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة عقد المؤتمر المصرى ردا على المؤتمر

القبطى وهى التى فكرت فى اسناد رئاسته الى مصطفى رياض رئيس الوزراء الأسبق وقد أوعزت اليه بقبول الرئاسة على شيخوخته ولو لم يكن الاحتلال مغتبطا بهذه الحركة أو راضيا عنها لما فكرت الوزارة فى تأييدها " ومما يؤيد ذلك أيضا أن جميع موضوعات المؤتمر المصرى والمؤتمر القبطى، قد خلت من أى معارضة للاحتلال أو انتقاد لسياسته ، أو مطالبة له فى تحقيق وعوده ، فى حين أن طابع المؤتمرات الوطنية فى ذلك العهد إنما هو توجيه الأمة لمقاومة الاحتلال والجهاد فى سبيل الاستقلال ومما يستوقف النظر حقا أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الاحتلال ، ولم يكن هذا منهج الزعيم محمد فريد فى خطبه ومقالاته ، ومما يشرف تاريخ فريد حقا أنه لم يشترك فى هذه المظاهرة التى تنافى منهجه ومنهج مصطفى فى تدعيم الوحدة الوطنية .

ومما قاله الزعيم الوطنى الخالد (محمد فريد) (١) فى مذكراته فى أثناء الحكم عليه بالسجن ستة شهور من ١/٣ الى ١٧/٧/١٩١١ « فى أثناء حبسى شرع فى المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا ، بناء على رغبة السيرالدون غورست ، لمحاربة الأقباط وبالتالى للتفريق بين الأقباط والمسلمين » .

كتاب واصف باشا غالى للشاعر :

ولما كان واصف باشا بطرس غالى من أصدقاء اسماعيل فقد كتب اليه الكتاب التالى يرغب اليه أن يتوسط فى الصلح بين المسيحيين والمسلمين لما لشعره من الأثر البليغ فى قلوب مواطنيه .
سيادة المفضل اسماعيل صبرى باشا (٢)

(١) مقمذ فريد رمز الاخلاص والتضحية - ص ٢٧٢ لعبد الرحمن الرافعى .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى - المطبوع سنة ١٩٢٨ .

قيل أن الشعراء أنبياء اذ هم سياسة الأفكار وقادة الشعوب ،
فحسى أن يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف ، والآن
يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية ، أن يعمل لما فيه
التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتى الضعيف مناديا
بالاتحاد والوثام ، على أنى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته
أن يحرك عواطف الأمة فهل لك يا سيدى أن تبذر بذور السكينة
والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد
للبلاد .

ولعمرى أن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمت سحر يجمع
القلوب المتنافرة وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى صديقك
الحميم (يعنى ذكرى المرحوم بطرس غالى فى ٢١ فبراير سنة ١٩١١)
فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك
الكريم :

« مثل الأقباط والمسلمين فى مصر كمثل العينين فى الوجه
يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى ، وتكلمها بالدعوة الى أن يكون جدث
الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الأرتباط
المتين بين الأقباط والمسلمين ، وأنى أشكرك من أجل ذلك باسم
والدى بل بصفتى ابنا حنون على وطنه وأمته . »

وتفضل بقبول احترام اخيك الحافظ لك ودأبيه ،،،،

واصف بطرس غالى

١٩١١/٢/٨

* * *

قصيدته فى مواساة الأقباط فى مصابهم :

وكان من أثر ذلك أن وجه اسماعيل صبرى قصيدته التالية الى
الأقباط مواسيا اياهم فى محنتهم ، داعيا الى التخفيف من حدة
الحزن والأسى على فقد زعيمهم بطرس غالى ، مستنكرا جريمة مقتله

أشد الاستنكار ، ومنندا بالقاتل على تهوره وخيانتة البشعة مناشدا
الجميع التمسك بعروة المحبة والاخاء والوحدة .

راء قد كنتم وفي الضراء
كان بالأمس زينة الكبراء
هاتها داويا بصوت البكاء
بللتها عيونكم في سخاء
ل وفعل المصاب بالعقلاء
س وفاء ان عد اهل الوفاء
وتخطت حدود كل عزاء
وعويل في أثر كل هناء
لا تهتمت كواكب الجوزاء
ر كبيرا في الفضل جم العلاء
ر لابناء مصر من اعلاء
(أحمد) يأمرائنا بالاخفاء
راقبوا الله بارى العذراء
مت بتفريقنا دواعى الشقاء
نبا والا فمصر للغرباء
بذروا بيننا بلور الجفاء

لا تولوا وجوهكم شطر من عكر ما فى قلوبنا من صفاء
ان دين المسيح يأمر بالعر
لا يكن بعضنا لبعض عدا
ايها القاتل اشرب الموت كأسا
لو ملكنا شيئا اشد من القتل
ف وينهى عن خطة الجهلاء
لعن الله مستبىحى العلاء
فى نضير الصبا وغمض الفتاء
جزاء لنته من جزاء

ولعل هذه القصيدة بالنسبة للظروف التى قيلت فيها تعد من
القصائد التاريخية التى يجب أن تخلد على مر الزمان ، لأنها عالجت

مشكلة من أخطر المشاكل التي تعرض لها هذا الوطن في وقت كان
الاحتلال البريطاني جاثما على البلاد ؛ مشجعا للعوامل المناهضة
لوحدة الأمة ، ومستغلا لكل خلاف ينشب بين الأقباط والمسلمين .

بل هي أيضا من القصائد البناءة ، لأنها عالجت جرحا غائرا في
بنيان المجتمع وأطفأت نارا خبيثة كادت أن تنتشر ، فلا تبقى
ولا تذر ، وصدورها من امام الشعراء المسلمين في ذلك العهد ، كان
له أطيّب الأثر وأحسنه في تلطيف الجو وتأكيد روح التعاون والمودة
والإخاء بين المسيحيين والمسلمين من أبناء هذا الوطن العزيز .

شعر المراثى

مقدمة :

ان أول ما يطالعك من مراثى « صبرى » انها رثاء بالمعنى الانسانى العميق . حزن على المرثى يختلف قوة وضعفا ، حسب صلة الشاعر به فى حياته ، والانطباعات التى تركها المرثى فى نفسه ، من واقع آثاره فى الوطنية أو الاصلاح أيا كانت ضروبة وتركيز على جوانب حياته وخلالها وفضائله وآثاره ، وبكاء من الشاعر لنفسه ولذكرياته ولأحبابه الراحلين ، وشجا يتجدد كلما اختطف الموت خليلا أو زعيما أو وطنيا صالحا ، وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يندب الشاعر عظيما دينيا أو ثقافيا أو سياسيا اتصل هو به ، ولمس خلاله عن قرب ، وتوثقت بينهما العلاقات وتألقت المبادئ والأفكار : فاذا رثى (الشيخ محمد عبده) - مثلا - عرض عليك الامسام فى روائع آثاره ومواقفه وصور لك فجيعة العلم والدين والبر والتقوى فيه ، ونستطيع أن نقول مثل هذا فى ما قال من رثائه غيره من الراحلين فهو فى كل موقف من هذه المواقف يذيب قطعة من نفسه ، ويندب حظه فى أحبابه وحظ الأمة فى رجالها ، وحظ الشرق فى نابغيه .

ومما يتصل بهذه الناحية أيضا في مراثيه ، ارساله نفسه على سجيتها في الحزن وتصويره هول الفاجعة واستثارته الجوانب المؤثرة من الموقف ، فاذا رثى زعيما عظيما كمصطفى كامل - أراك فداحة المصاب ، وكيف ينصب في النفوس انصبابا ثم هو أيضا يصطنع الحكمة والتسليم بالمقدور والاذعان لحكمة الله في كثير من المراثي .

وقد أوردنا أغلب مراثيه ، وما لم يرد منها مراثيه للخديوى محمد توفيق عام ١٨٩٢ ، أمين فكرى باشا عام ١٨٩٩ ، على أبو الفتوح باشا عام ١٩١٤ وتعازيه الى يوسف سابا باشا عام ١٩١٢ ، الشيخ على يوسف عام ١٨٩٧ السلطان حسين كامل عام ١٩١٦ ، وقد ذكرنا في مواضع سابقة رثاء لمصطفى كامل وبطرس غالى .

ومن مراثيه المشهورة رثاؤه للامام المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ولقد كانت للامام مبادئ لا ترضى الكثيرين ، رغم أنه يعد من أقطاب الاصلاح ، الدينى والاجتماعى والأدبى والسياسى فى البلاد حتى انبلاج فجر القرن العشرين .

اما اصلاحه الاجتماعى والدينى فيتمثل فى تدريسه فى الازهر وفى دار العلوم ونحوهما ، والكتابة فى الصحف ، حيث أخذت مقالاته طابعا تعليميا بحثا أصبح به معلم الأمة ، بما يصدره من الفتاوى الشرعية ردا على أسئلة الطالبين ، وبما يعبر عن عقلية حرة تحب الاجتهاد فى الرأى وتكره الجمود الفكرى ، وفى الازهر كان له الأثر البالغ فى التوفيق بين الدين والعلم ، وقد استخدم الصحافة كمنبر عام يخاطب به الشعب فى أمور الدين وأمور المجتمع ، داعيا الى اصلاح الحكومة واصلاح أحوال الأمة . وقد سعى فى سبيل اصلاح المحاكم الشرعية والأوقاف الأهلية والشرعية ، ودعا الى

اصلاح الازهر وادخال العلوم الحديثة فى برامجها الى غير ذلك من
دواعى الاصلاح والترقية ، وفى ميدان الاصلاح الأدبى واللغوى
سلك عدة طرق منها طريقة احياء الكتب القديمة وشرحها شرحا
واقيا ولما عين محررا للوقائع المصرية سعى فى اصلاح لغة الدواوين
الحكومية وازالة ما بها من ركافة ، وفى ميدان الاصلاح السياسى
طالب بايجاد دستور محقق لسيادة الأمة ومقيد لسلطة الاحلال
والخديوى فى وقت واحد معا ، وكان له نشاطه الجهم فى مجلس
شورى القوانين منذ دخله سنة ١٨٩٩ ، وأثره الكبير فى كل
ما اتصل به من لجانة المختلفة وكان الامام صاحب مدرسة كبرى من
مدارس السياسة ما فى ذلك شك ، وكانت هذه المدرسة تؤمن
بطائفة من المبادئ منها تزويد الأمة بأدوات الاستقلال وانماء
الشخصية المصرية بكل الطرق الممكنة ، وتنقيتها من رواسب الماضى ،
والتدرج بالأمة فى الاصلاح ثم الاخذ بنظرية التسامح الدينى بين
الاقباط والمسلمين .

هذه هى آثار رجل كان شديد الاخلاص فى خدمة وطنه وخدمة
دينه ، ورغم شدة خصومة الخديوى عباس حلمى له واستنكاره لمن
اشترك فى تشييع جنازته فقد رثاه صبرى بهذه المرثية الخالدة التى
تعد مستندا لما أوردناه عنه من مآثر .

رثاؤه للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥

**تدفق دموعا أو دما أو قوافيا
مآتم أولى الناس بالحزن ها هيا**

**ايجهل أن تنعى الفضائل للورى
ولم تك فى الباكين ويعك باكيا**

**أغرك من بعض الميالى سكونها
فبت قريرا ناعم الببال هانيا**

لقد سكنت لكن لترهف للوغى
دقائق من ساعاتها وثنائيا
الا أن بين الكأس والفم فرجة
لركض عظيمات تشيب النواصيا
ففيه رقبيا من حذارك كلبا
رأيت بأطراف الفؤاد أمانييا
(محمد) دور العلم كانت أو أهلا
بفضلك ما بين الأنام زواهييا
فصيحها الا من الحزن والاسى
عليك القضاء المستبد - خوالييا
فما للردى - لا بارك الله فى الردى
احال بشير الأمس فى الكون ناعييا
برغم الحجا والمجد أن مسك البلى
بسؤ فأضحى عودك الصلب ذاوييا
وان أقفل الباب الذى كنت عنده
تقابل ملهوقا وترصد شاكييا
(محمد) من للدين يحرس حوضه
ويدرا بين الناس عنه العوادييا
تعرض قوم للكتاب واثنوا
صراحتة شرحا عن القصد نائييا
فأرسلت فيه نظرة فأنت الى
صميم مراد الله اذ قمت هادييا
ووفقت بين الشرع والعقل بعلميا
قد اعتقد الألفان الاتلاقييا

وقفت وأقسام الغواية شـرع
وأقلام أهل الحق ترنو سواهيـا
وأفحمت بالبرهان كل مناضل
لو أنك لم تغضب لزد تماديـا
ففاؤ الى الحسنى ولو لم تحبهم
لعاتت زئيرا صيحة القوم داويـا
هنيئا لهم فليحملوا حملاتهم
فقد أصبح الميدان بعدك خاليـا
(محمد) وفيت المروءات حقها
وقمت اليها فى حياتك داعيا
وعلمت أهل العرف فى العرف أوجها
لها غرر مشهورة - ومعانيـا
وعالجت أمراض القلوب بحكمة
ترى ظاهرا من خلفها البرء صافيـا
وأودعت فى الطلاب أجزاء مهجـة
ترى العلم ان لم يعمل المرء هـاذيا
مناقب ان عدت تصوع بيننا
كانا اتخذنا ساحة الروض ناديا
ألانم مع الأبرار فى الخلد ناعمـا
فكم بت فينا ساهر العزم عانيـا
جزيت عن الاسلام ما أنت أهله
فقد كنت سيفا فى يد الحق ماضيـا

« رثاء عمر »

نجل الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد سنة ١٩٠٨

يا ما لى العين نورا والفؤاد هوى
والبيت أنسا تمهل أيها القمر
لا تغل أفك ي خلفك الظلام به
والزم مكانك لا يحل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما
وفيهما - اذ قضيت - النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى
ومن بكاء الشكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة
يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ما كان عيشك فى الأحياء مختصرا
الا كما عاش فيه كماه الزهر
فأرحل تشيعك الأرواح جازعة
فى ذمة القبر بعد الله يا (عمر)

★ ★ ★

رثاء السلطان حسين كامل فى أكتوبر سنة ١٩١٧

لهف سارى الدجى لقد أقل البند
وطال السرى وغساب الهادى
لهف راجى القرى (١) وحاتم طى
قد خبت (٢) ناره بهذا الوادى

(١) القرى : ما يقدم للضيف .

(٢) خبت : ضمدت .

لهف شاكي الصدى اخو النيل قدبا
ت بعيد المزار عن كل صيادي
من يغيث المظلوم ان بات يشكو
و (حسين) عدت عليه العيادي
حبلا طيف نهضة قد ارانا
ه عيانا لم يتفق في رقاد
فكانا من (عابدين) خروجيا
نتهادي منها على ميعاد
لم ير الموت رأيه وتقضى
حلم قد سرى بأقصى البلاد

★ ★ ★

تعزية كتب بها الى الشيخ علي يوسف
صاحب المؤيد عند وفاة ابنته « فتحية » سنة ١٨٩٧ م
هي الدنيا وان جادت بخيلة
يد الحرمان في يدها المنيلة
سواء من يعيش الألف فيها
ومن أيامه فيها قليلة
لئن قصرت بمن تهوى الليالي
فان فتوح والدها طويلة
أستاذ المؤيد هل أعزى
فجهدى اليوم تعزية جميلة
فما في لوعة الآباء شك
ولا في ذاهب الأبناء حيلة

وانت المرء ان أخطأك نسل
فنسلك بيننا الخدم الجلييلة
تمنالك النجوم ابا ، وتابى
شريكا في أبوتك الفضيلة

★ ★ ★

رثاء المرحوم اسماعيل ما هـربك

قاضى محكمة الاسكندرية المختلطة فى سنة ١٩١٠ وكان صديقا
لصبرى فى المدرسة ورفيق صباه

أناعى ماهر لم تدر ماذا
نعتت الى أياما تقضت
الا من للضعيف اذا تقاضى
ومن للعدل ان رفعت بنساء
أماهر ان وعد الله حـق
فما لى - والأناة ملاك نفسى
وما لى ان أمرت ببعض صبر
أماهر كنت فيها مر أنسى
وكنت اذا شكوت تبیت وجدا
وتسال سارى النسومات عنى
ومن يفقد شبيهك يبك دنيا
كذبتك لو صدقتك بعض ودى
ولاستقصت حبال النعش عيني
برغى أن تقلص منك ظل
وان نصبت خلال كنت منها

أثرت من الشجون الكامنات
باسماعيل غبرا صافيات
ولم ير شخصه بين القضاة
دعائه ولم يك فى البنساء
وما جزعى عليك من التقية
هلعت ولم تجملى أناتى
رأيت الصبر احدى المعجزات
فمن لى فى اللينالى الباقيات
تردد ما يريبك من شكاتى
حنوا والبروق الواضات
تولت بالمودة والمقات (١)
لهد جوانعى صوت النعساء
وراءك راحلا همم البكساء
وقانى حقبلة لفتح الحياة
اعب لديك من عذب فترات

(١) المقات : جميع مقالة بكر الميم وهى المحبة .

وأن صفرت يمينى من وداد
أخى ما حيلتى الاسلام
والا اللطع أنثره عقيقا
قضيت فكنت أسرعنا مسيرا
غنيت به لىالى خاليات
يزورك فى المساء وفى الفداة
على ذكرى حلاك الغائبات
الى غرف الجنان العاليات

وهذه القصيدة تعد من أبرع مراثيه وفيها يفيض حزنا وعاطفة ورقة ، بل تذوب نفسه فيها ذوبانا وقد أودع فى أبياتها قطعاً من أفلاذ كبده ، على صديق العمر ورفيق الصبا الذى شاركه جميع مراحل العمر منذ كان طالبا فى معاهد الدرس والتعليم الى أن أصبح من رجال القضاء .

والقصيدة بصفة عامة سجل يروى فيه الشاعر الملتاع ذكريات صداقته ويروى خلالها ما أثر عن صديقه ، من وفاء وصداقة خالصة ومحبة قوية ومودة صافية ، ويبكى فجيعة فى صديقه ، وتشعر بدموعه الحارة تجرى فى جميع سطورها .



رثاء اسماعيل نجيب (١) نجل ابراهيم نجيب باشا

وكيل الداخلية عام ١٩٠٧

الا ياتجار العصر هل فيكم امرؤ
اذا دلتى منكم على مثله فتسى
ففى الحى قوم عاكفون على لظى
يخالهم الرائي سكارى من الاسى
لو أن قلوب الناس طوع ارادتى
يبيع على صرعى الهموم عزاء
خلعت عليه ما يشاء جزاء
تديبهم البلوى صباح مساء
فيبكى عليهم رحمة ووفاء
أحلت الاسى فى بعضهن هناء

(١) المرحوم اسماعيل نجيب مات فى ريعان شبابه بعد أن نال شهادة الليسانس وعين مأمورا للضبط بالجيزة - وكان والده صديقا حبيبا للشاعر .

لما ذنب بعض الثاكلين بكاء
وداهمه حتى ينال شفاء
وضمض طوداراسيا وأساء
برغم ذوايك - البائسين هباء
تكلفت الصبر الجميل حياء
مدى الدهر لم تعقد عليك لواء
فقد ضم غصنانا ضرا وفتاء

ولو طاوعتني كل عين قريحة
وعالجت ابراهيم مها أصابه
مصابك اسماعيل زعزع شامخا
وأودى بآمال كبار تصرمت
مصابك اسماعيل أودى بأسره
وقلص آمالا كبارا كأنها
على قبرك المطور منى تحية

★ ★ ★

رثاء سليم بك تقلا

مؤسس صحيفة الأهرام عام ١٨٩٣م

فطول سرور المرء موعده كاذب
صفاء الليالي هدنة من محارب
رأى بينه سدا وبين النوائب

إذا كان ورد الموت ضربة لا زب
فلا تغترر بالعيش واحذر فانما
يبيت الفتى خلو الفؤاد كأنه

★ ★ ★

فتى كان يدعى قبل أكتب كاتب
يجل مقام الكتب فوق الكتائب
بأفتك من لآلئه بالغياب
فلو صب في كأس لساغ لشارب
كذراك ذكراه فليس بغائب
وعاطر أخلاق ورقة جانب

برغمي أن يدعى ترابا وأعظما
فتى كانت الاقلام تشهد أنه
هرى كوكبا ما البدر ليلة توه
فتى طرعه قد كان كالماء رقة
فيا راحلا قد غاب عنا ومن تكن
سلبت النهى حبا بباهر حكمة

★ ★ ★

رثاء (١) عبد الله فكرى باشا ١٨٨٩ .

ان الليالى من أخلاقها الكدر
فكن على حذر مما تفر به
قد أسمعتك الليالى من حوادثها
ان كنت ذا أذن ليست بواعية
للدهر لو كنت تدرى هول منطقها
يا من يغر بدنياه وزخرفها
ويا مدلا بحسن راق منظره
تهوى الحياة ولا ترضى تفارقها
كل أمرى صائر حتما الى جدث
وان بدا لك منها منظر نصر
ان كان ينفع من غراتها الحذر
ها فيه رشذك لكن لست تعتبر
قل لي بعيشك ماذا تنفع العبر
وعظ تردده الآصال والبكسر
تا لله يوشك أن يودى بك الغرر
للقبر ويحك هذا الدل والخفر
كمن يحاول وردا ما له صدر
وان أطال مدى آهاله العمر

* * *

أبعد ان مات عبد الله - مرتها
يا ويح من أودعوه القبر هل علموا
قد غيبوا ماجدا كانت مناقبه
وعطلوا من ربوع العلم أندية
مضى وخلف فينا من فضائله
تحت الثرى - يرتجى صفو وينتظر
ان المكارم كانت بعض ما قبروا
بها الزمان اذا مازل يعتذر
كانت بعلياه يوم الفخر تفتخر
بدائعا يجتليها السمع والبصر

(١) عبد الله فكرى باشا من أعلام الادب فى عصر اسماعيل ، ولد بمكة وتعلم اللغة والفقہ الحديث وتولى عدة مناصب حكومية ، آخرها تولى وزارة التربية والتعليم فى وزارة محمود سامى البارودى باشا ، ثم ندبته الحكومة عام ١٨٨٨ لحضور مؤتمر المستشرقين بمدينة استوكهولم ولما عاد من رحلته اهتم بتدوين كتاب عنها ولكن المنية واقتته عام ١٨٨٩ قبل اتمام الكتاب .

الصالونات الأدبية فى القرن الماضى

مقدمة :

لقد كانت القاهرة فى عهد اسماعيل صبرى تعج بكثير من الشعراء والأدباء والكتاب والصحفيين والمنتسبين الى هؤلاء جميعا من أصحاب المهن الأخرى ، من مصر وغيرها من الاقطار العربية والاسلامية .

والذى يقرأ تفصيلات هذه الفترة يشعر بأن البلد كان أشبه بخلية نحل بمن فيه من أصحاب الكلمة ، بالقلم واللسان ، يسعون سعيا دائما فى الصباح والمساء ، وفى الليل أوله وآخره ، لا تفتقر لهم حركة ، ولا تكل لهم همة ، رغم ظروف الاحتلال الاجنبى وحكم الاستعباد والاستغلال ، تجمعهم حلقات على الكلمة الأدبية ، أو الطرفة المليحة ، أو الفكاهة العذبة ، أو الخبر المهم أو الحديث الطلى أو الدرس السياسى الممتع ، ولم يكن لبعضهم مكان معين أو مجلس خاص والبعض الآخر اتخذ مشربا معيننا مكانا لعقد حلقاته فى مواعيد منتظمة ، والبعض يجتمع فى المساجد وخاصة الجامع الازهر وحلقات أشياخه والبعض فى الدور والمقاهى يعقدون مجلسهم وأنديتهم فى انتظام وفى غير انتظام .

ولقد كان شارع محمد علي من الشوارع المهمة في ذلك العهد ،
فهو شارع الصحافة القديم وقد وصفه علي باشا مبارك في كتابه
بأنه أجمل شوارع القاهرة ، ومن هذا الشارع ، صدرت صحف :
المؤيد والجريدة والفلاح والصاعقة والحال والمحروسة وحمارة منيتي
وفيه كانت كل الندوات الأدبية المعروفة تقريبا مثل ندوة حافظ
ابراهيم وندوة امام العبد وكان كبار المفكرين والأدباء يترددون على
مقاهي شارع محمد علي مثل : لطفى السيد والعقاد والمازنى والمنفلوطى
والشيخ علي يوسف واسماعيل تيمور (وشيوخ العروبة أحمد زكى)
وعندما قررت الدولة أن تكرم الأدباء أقامت لهم دار الكتب في
شارع محمد علي ، وقد كانت به أهم ورش الحفر بالزنكوغراف وأهم
المكتبات الشهيرة ؛ وكانت المقاهي فيه هي مركز النشاط الأدبي
والسياسي وكثير من المؤتمرات السياسية دبرت في هذه المنطقة .

ومن أهم المقاهي التي كانت تعقد بها الندوات « قهوة المضحكخانة
الكبرى في شارع الخليفة منذ أيام محمد علي وكان يتردد عليها
جلة من العلماء والأدباء مثل الشيخ أبى النصر والمنفلوطى وأحمد
سمير وأمين فكرى ، أما المجلس الحافل الذى كان يعقده حكيم الشرق
العظيم والزعيم السياسى والأدبى الكبير (الذى تدين له الأمم الشرقية
جمعاء بنهضتها السياسية والفكرية والاجتماعية) جمال الدين
الافغانى ، فى فترة اقامته بمصر من مارس سنة ١٨٧١ الى أغسطس
سنة ١٨٧٩ (تلك الفترة المباركة الخصبة من ناحية ثمارها
ونفحاتها) كان ينعقد فى قهوة - متاتيا - بميدان العتبة
الخضراء - وكان بمثابة مدرسة سياسية على أعلى مستوى
عرفته البلاد ، ولم يسبق أن أتاحت لها فرصة أمثال هذا المجلس
من قبل . وكان من الذين تلقوا دروسه فى هذه الحلقة الفريدة
خطيب الثورة العراقية الكبير السيد عبد الله النديم أستاذ مصطفى
كامل ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وسعد زغلول

ومحمد عبده وإبراهيم اللقاني وعلي مظهر وسليم نقاش وأديب
اسحق وغيرهم .

الصالونات الأدبية :

كما اشتهرت دور طائفة من الوجهاء والعظماء بنداوانها
وصالوناتها الأدبية ومجالسها العلمية نذكر من أهمها :

مجلس السيد توفيق البكري في داره بحي الخرنفش ، ومجلس
محمود سامي البارودي في باب الخلق ثم في حلوان ، ومجلس
الشيخ محمد عبده في داره بعين شمس ومنتدى الاميرة نازلي فاضل
بدارها خلف قصر عابدين وكرمة ابن هاني في دار أحمد شوقي
بالجيزة ، وصالون الاهرام « الأدبي » ونادي القلم وعيادة الدكتور
محجوب ثابت .

وفي العهد الحالي مازالت الندوات الأدبية بالقاهرة تلتئم في
الجمعيات والاندية الخاصة ، مثل جمعية الأدباء والجمعية الأدبية
المصرية وجماعة الامناء وفي كثير من البيوت الكريمة والمشارب التي
يضيق بذكرها المقام .

الصالون الأدبي في قصره :

كان قصره في شارع قصر العيني مشابهة للأدباء ، وملاذا
للشعراء يمتحون من معينه الفياض ، ويترعون من المؤثرات
الجميلة التي يعج بها ، ما يقوم أقلامهم ويشحن ملكاتهم ، ويغذي
قرائحهم ، بل كان صالونا أدبيا على نمط رفيع وهذا يذكرنا
بالنوادي الأدبية في فرنسا في القرن السابع عشر والتي كانت
المرأة الفرنسية زينتها وجلوتها . كما كانت داره مجالا رائعا لتلاقى
الأدباء وتبادلهم الرأي في مسائل الأدب والشعر والنقد وفي

منتداه قرأ كثير من الشعراء شعرهم وأخصبت قرائهم وصقلت مواهبهم وأثرى معينهم من الالهام .

وفي ذلك يقول أحمد شوقي :

أيام أفرح في غبارك ناشئاً نهج المهار على غبار خصاف (١)
أتعلم الغايات كيف ترام في مضمار فضل أو مجال فواف

★ ★ ★

وقال خليل مطران : (٢)

أى صاحبى لقد قضى أسـتاذنا البر الحبيب
فـعـرا قـلادتنا وكانت زينة الدنيا شحوب

★ ★ ★

وقال (٣) حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه في ناره وناديه فيها زهى وازدهر
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس بنو الوتر
على سمع باقعة حاضر يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظي صقل الجمان ويكسوه رقة أهل الحضـر

(١) خصاف : فرس مشهور عند العرب .

(٢) ديوان خليل مطران .

(٣) ديوان حافظ ابراهيم .

وتدلنا هذه الأبيات التي قالها لأعظم شعراء ثلاثة في العصر الحديث أن اسماعيل صبرى كان أساتذهم وامامهم وفى ظله الرحيب ومغناه السامر ، وناديه الوارف ، استمدوا ما استمدوه من أدب وصقل وتشجيع وتقويم وهذا وأيم الحق من مآثر صبرى الخالدة ، أن أظل الشعراء والأدباء يوارف ظله ، وكريم حديه ، ومما لا شك فيه أن هذا الصالون كان مجالاً لعرض الانتاج الأدبى والشعرى على صنوفه المختلفة ، وكثير من المؤلفات التى نشرت كانت من آثار هذا الصالون ، ولذلك كان عاملاً مساعداً لزيادة الثروة الأدبية فى البلاد ، وقد قدر اسماعيل صبرى للكتاب والأدباء ما أنتجوا وشجعهم على ذلك بمقطوعات شعرية لطيفة منها تقريظه لكتاب « قلائد الحكمة » للأساتذ أحمد الزين وهو كتاب مشتمل على كثير من الأراجيز فى الآداب والأخلاق والاجتماع جمع كثيراً من شتات الحكم الماثورة والآداب المنشورة .

نشرت هذه المقطوعة فى سنة ١٩١٨

اذا كنت (يا زين) زين الأدب	فان كتابك زين الكتب
(قلائد) حليت صور البيان	بهن وطوقت جيد العرب
خلائق ترمى بنفح الرياض	اذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء الا بخلق كريم	وليس بما قد حوى من نشب

★ ★ ★

ثم يقرظ « لىالى سطيح » تأليف الشاعر حافظ ابراهيم
بهذه الأبيات التى نشرت فى سنة ١٩٠٦

طالب الحكمة خذها جملة	عن « سطيح » من لىلى أفسح لافضل
قطع تبهر الباب الورى	ضربت فى مصر أيام حافظ

ثم يقرظ الجزء الأول من ديوان الشاعر أحمد نسيم

لك في الشعر يا نسيم معان
كل بيت يطل منه على أف
باهرات تحار فيها العقول
هام أهل النهى محيا جميل

ويقرظ الجزء الثاني منه في سنة ١٩١٠ قائلا :

أي غصن في الروض هز (نسيم)
حبذا شعره الجنى وأهـ لا
نثرت منه هذه الأزهار
بيان تزهى به الأشعار

★ ★ ★

ثم يقرظ ديوان أحمد شوقي المعروف بالشوقيات في قصيدة
من خمسة وعشرين بيتا جاء فيها :

إن ما بت تشمتكي منه داء
غير أنى أراك تكتم عنها
أحسبت النوال يهمل على العا
أو أعدت للصامتين العطايا
شغلت بالقريض عنا الغواني
ورأينا ديوان « أحمد » لا تصر
مرحبا بالعلماء وفي القوافي
مرحبا بالقريض وفي المعالي
مرحبا بالحياة في الوصف تسرى
مرحبا بالبيان سحرا وبالشبه
مرحبا بالمقال سمحا كريما
هي أدري ببرئه لو تنساء
لوعة من حقوقها الاقضاء
شق عفوا وتهطل الآلاء
أغرق البكم اذ يفيض العطاء
وأصاغت لربه العذراء
ف عنه القلوب والأهواء
حظها منه رفعة وسناء
قسطها منه رونق وبهاء
فيعاد الموصوف والأشياء
ر تحليه حكمة غراء
لم يشبه هجو ولا ايذاء

وطالما هنا أصدقاءه من مرتادي هذا الصالون ، في المناسبات
الخاصة بهم ومن ذلك تهنئة لشوقي أيضا حينما نال الرتبة الثانية
سنة ١٩٠٥ م .

أشوقي لقد نلت ما تشمتي
ومن كان مملوحه في السماء
بفضل أمير رفيع الذرا
تسئم متن السنا منبرا
وكذلك تهنئة لحافظ ابراهيم بنواله رتبة البكوية

★ ★ ★

أخلق بمثلك أن يفوز برتبة
يا خير كفء نالها عن فطنة
قد أشرفت بك للعفاة سماؤها
عش للقريض فأنت باني مجده
وكفاية أعمى الحسود ضياؤها
لم لم تفز بأعلى رتبة
بقصائد غر يلوح سناؤها
لسالت أن يهدي اليك لواؤها

المدائح والتهانى

اشتهر ديوان اسماعيل صبرى بالتهنئات التى رفعها للحكام الذين عاصروهم وهم الخديويون اسماعيل وتوفيق وعباس حلمي ، كتقليد شائع فى عصره عند جميع الشعراء ونسمع له فى الفترة من عام ١٨٨٧ حتى ١٩٠٨ قصائد كثيرة فى مدحهم وتهنئتهم فى الأعياد وشتى المناسبات ، كما مدح السلطان حسين كامل فى مناسبة توليته ، وفى مناسبة نجاته من حادث الشروع فى الاعتداء عليه ، وعزاه فى وفاة والدته كذلك مدح أحد أساتذته فى مدرسة الادارة والألسن وهو صالح مجدى بك سنة ١٨٧٢ وقد دل ذلك على فضيلة الوفاء لمن علموه .

وقد بدأ حياته الشعرية بمدح الخديوى اسماعيل (وهو بعد طالب بمدرسة الادارة وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة) ، بمناسبة عيد الأضحى ، بقصيدة جاء فيها :

ونما الغرام بقلبي المعمود	(١) سفرت فلاح لنا هلال سعود
فسقى الحياة شقائق التوريد	وجللت على العشاق روض محاسن
فبدا ضياء اللؤلؤ المنضود	ورنت بأحور طرفها وتبسمت
وعلى محبك بالمودة جودى	يا رية الطرف الكحيل تعطفى

(١) يقصد فى هذا البيت ولى العهد محمد توفيق باشا الذى تولى الحكم بعد

خلع اسماعيل .

الى أن قال :

فالقطر عم سناؤه وبهاؤه بمحمد وبسعيه بالمحمود
لازلتما بدرين في أفق العلا بهما زها اشراق يوم العيد

والملاحظ على مدائح اسماعيل صبرى الأولى وهو فتى صغير، أنه لم يجدد في شعره ، انما سار على نهج العرب الأقدمين ، فى معانيهم وألفاظهم ، ولم يستطع التخلص من ربة الأدب القديم ، كما لم تواته ذخيرته من محفوظ الروائع الخالدة على اجادة التقليد ؛ واكتفى بترديد المعانى المطروقة من قيل بأسلوب يناسب بيئته وثقافته ، ولكنه بعد عودته من بعثته العلمية فى الخارج ، تطور شعره فى المديح وتخلص من كثير من العيوب التى شابته .

ولم يسخر الشاعر أوتاره لتهتف فى أى مجال دون أن يكون له قصد سوى الظهور والشهرة ، ولكنه أثنى على من يستحق الثناء وأكرم من هو أهل للتكريم . وقد اشتهر ديوانه بالتهنئات التى رفعها للحكام فى مناسبات مختلفة . وقد أقام رجال القضاء والقانون بالاسكندرية حفل توديع له بمناسبة نقله وترقيته الى رئيس محكمة القاهرة فى سنة ١٨٩١ م فشكرهم على شعورهم قائلا :

شكرا على ما بدا من صدق ودكم فاننى من صميم القلب ممنون
والله ما بعثكم حبا بغيركم ولو فعلت اذا انى لمغبون
وانما قضى أمر المليك بذا وكل عبد بأمر الملك مرهون
وبعد فالقلب ان اجسامنا افترقت بقيد بحبال الود مقسرون
فاسأل الله ابقاء الهناء لكم ان الهناء بحمد الله مضمون

وقال فى هذا الغرض أيضا :

يا آل الفضل والكمال ويا قرة عين الوفاء وعين الوداد

يا لذي زانكم وميزكم بالعد — م والجلم والهدى والرثما
 أنصفوني من لطفكم فلقد غا درنى راحلا بغير فؤاد
 واحفظوا عهدى القديم فانى حافظ عهدكم برغم البعاد
 فاذا قرب النفوس اتلاف هان عندى تفرق الأجساد

فى تكريم الشاعر المرحوم خليل مطران
 قيلت فى حفلة تكريمه بالجامعة المصرية عام ١٩١٣

★ ★ ★

امطرى ياسجائب الفضل ما شئت و فيضى على الربا والوهاد
 واتركى كل عاطل خالى الصمد ر وقرب العين فى كل رانى
 لن تزينى أحق من جيد (مطرا ن) وأولى من صدره بالثقاد
 فلم تصدر الحقائق عنه حاليك فى أجمل الأبراد
 ولسان يمى يديره فك — ر كبير النهى كبير المراد
 ايه (عباس) شق نهجا جديدا كل يوم الى ذرا الأمجاد
 وتخبر للسعد أمثال (مطرا ن) أحق الأنام بالاسعاد
 وأنلهم مما تصوغ المعالى نعم لا تمن فى الأجياد
 بارك الله فيك فالملك ماد مت رفيع الذرا رفيع العماد

ثم قال فى تقرىظ شعره أيضا سنة ١٩١٣

قم أدر يا (خليل) شعرك فينا قرقفا (١) يشرب النهى وعقارا
 انت مطران دين شعر جديد فتن المسلمين قبل النصارى

(١) قرقفا عقارا وهو من أسماء الخمر ، سميت قرقفا لأنها ترقف شاربها

فى ترعد :

اسماعيل صبرى — ١٩٢٣

قصيدة تكريم الأديب واصف غالى باشا

ألقيت هذه القصيدة فى حفل أقيم لتكريمه فى فندق شبرد
تحت رعاية الخديوى السابق عباس حلمى سنة ١٩١٤ م لما قام
به من ترجمة بعض الشعر العربى الى اللغة الفرنسية فى كتاب
سماه « روض الأزهار » ونشر هذا الكتاب فى باريس ولما كان يقوم
به أيضا من القاء بعض المحاضرات للاشادة بفضل العرب والتراث
العربى الثقافى .

«قر العلوم والعلماء	أى صوت حيته بالأمس باريس
حكمة الشيب فى ربيع الفتاء	من ترى ذلك الذى جملته
ض مطلا من منبر الخطباء	ذلك الأسمر الذى بهر البيـ
ب كرام الآباء والأبناء	وأماط اللثام عن أدب العر
مع الأهل من إباء	بلسان ما اعتاد من قبل أن يخضه
لاسمه فى صحيفة الفضلاء	يا سجل الخلود فافسح مجالا
الذكر عمر محجل الاناء	وأر الأعصر الأوتى ان
قد عرفناه بما حاجه من الأصدقاء	ذلك صوت ابن بطرس
نعمة لم تكن لغير الوفاء	الق بالسمع تستخفك منه
رفق بنجمك الوضاء	ذاك نجم أطلقته أنت يا مه
ر عيون السراة فى الظلماء	واحليه حيث تفتقد البد
الحق فيها بالحجة البيضاء	كم له من مواقف هز عطف
كبار والمجد ذو أغلباء	ايه يا ابن الأمجاد قمت بأعباء
بى ورأى الكريم فى الكرماء	وأريت الانام بر ذوى القر

فاستمع مما يقال حولك يا (وا صف) ذا اليوم من ضروب الثناء
ان من طيب الثناء لزهرا تجتنيه مسامع الاكفء

وفى هذه القصيدة يشيد صبرى بما قام به واصف بطرس
غالى بن المرحوم بطرس غالى من عمل أدبى مجيد فى فرنسا ، من
القاء المحاضرات الأدبية باللغة الفرنسية فى المجتمعات الثقافية
بباريس ، عن التراث العربى الخالد ، وما أغدقه العرب على العلم
والثقافة والأدب ، وقد ترجم ديوان البحترى أو جزءا كبيرا منه
الى اللغة الفرنسية بأسلوب ممتاز مما كان له أجمل الوقع
فى المجتمعات الأدبية الفرنسية ودعاية للعروبة ولأمجاد الشرق .

قصيدة مدح

بعث بها الى الأمير عمر طوسن على ما بذله من المال والجهد لاعانة جرحى
الترك في الحرب البلقانية التي وقعت بين دول البلقان والدولة العلية

في سنة ١٩١٣ م

لك الامارة والأقوام ما برحت

لكل عالي الذرا في الكون تأتمر

لو لم ترثها لما ألفت أعتها

الا اليك خلال كلها غرر

يابن الألى لو أطلو من مضاجعهم

يوما عليك لقالوا : « ايه يا عمر »

أعدت أيامهم في مصر ثانية

حتى توهم قوم أنهم نشروا (١)

لله درك كم نبهت بن همم

تتنى على أهلها الأصال والبكر (٢)

وكم تعهدت جرحى من أسود وغى

ان يكشر الدهر عن أحداثه كشروا (٣)

مستنجدا من بنى مصر الى شمم

اذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا (٤)

(١) نشروا : أى بعثوا من الموت .

(٢) الأصال والبكر : أى أواخر النهار وأوائله .

(٣) يقال : كشر السبع عن أنيابه : اذا كشف عنها حين غضبه : وهو يصف

هؤلاء الشجعان بالحمية لقومهم اذ انابتهم حوادث الزمان حتى يكشفوا غمرتها .

(٤) الى شمم : أى الى قوم ذوى شمم ، الثلثة فى الحوض : الفرجة فيه من

من هدم وكنى بالحوض عما يلزم المرء من حمايته والدفاع عنه ، وبالثلثة فيه عما

يصيب المرء من ضيم .

- مستهميا هاميا والنيل فى وجل
- من أن تجود به أيماكم حذر (١)
- حتى تفاهمت الارحام وادكرت
- ما بينها الأهل والخلان والأسر (٢)
- وآذن البر بالسقيا وما فتئت
- منهم ومنك صفوف البر تنتظر (٣)
- وحركت كل كف بالندى مقية
- حتى تعجبت الانهار والفدر (٤)
- والناس ان قام يستسقى الكريم لهم
- سحائب الفضل بشرهم فقد مطروا
- يأبى علاء (سعيد) أن يشابهه
- الا ابن دوحته ان قام يفتخر (٥)
- ما زال يحمده رائيك مذكرا
- والأصل بالفرع - ان حاكاه - يذكر

(١) مستهميا هاميا : أى مستمطرا مطرا وكنى بالكلمتين عن دعوته للمصريين أن يجودوا بأموالهم على منكوبى الحرب . ثم قال بعد ذلك أن النيل خائف من أن تجودوا به لغيركم .

(٢) ادكرت : أى تذكرت ويشير بهذا البيت الى ما كان يلهمج به الخطباء والداعون الى التبوع .

(٣) آذن : أعلم . ومنهم = أى من المصريين .

(٤) المقية : المحبة والمودة من ومق . والعدر : جمع غدير .

(٥) يريد محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق وهو جد المدوح .

رد الأمير على هذه القصيدة في ٢٤ من مايو ١٩١٣ م

سعادة الأستاذ النايفة اسماعيل صبرى باشا

ان قصيدتكم الشائقة التى تفضل بتقديمها الينا حضرة
(حنايك) نجوم مرقومة فى ذلك اللوح المفرغ فى قالب الحسن
والاحسان بعدما أبدع تصويرها بيانكم الساحر وأحكم رصفها
قلمكم القادر ، قد حلت عند نافي أرفع مكان ، وعظم لدينا موقعها
على مقدار ما لكم من المكانة الرفيعة فى ديوان الشعر والأدب .

أما ما أشرتكم اليه فى كتابكم مما جرى على لسان (محمود
باشا فهمى) ، فانى أرى أنى لم أقم الا ببعض الواجب ، وانما هى
الآداب العالية أملت عليه وعليكم ذلك المدح والاطراء .

فأشكر الله الذى جعلنى أهلا لرضا اخوانى فى الوطن والله ،
وأشكر لكم هذا الصنيع الجميل الذى لا أنساه أبدا .
وتقبلوا سلامنا ،

عمر طوسون

تهنئة بعث بها الى أحمد زكى باشا ، سكرتير مجلس الوزراء
فى عام ١٩١١ بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشويه .

وخير من ألف فينا وكتيب	(زكى) يا صفوة أبناء العرب
تسعى الى بابك من غير طلب	نلت المعالي وتسنمت الرتب
والعلم والفضل وذيالك اللقب	لو لم تكن (باشا) لأغناك الأدب
هناك اليوم بسطر من ذهب	لو أن كل معجب بما كتبت

التقاريف :

كما اشتهر الشاعر بالقصائد القصيرة والمقطوعات التي شجع بها الكتاب والعلماء ومن ذلك تقريره لكتاب السفر الى المؤتمر « تأليف أحمد زكي بك » .

وفي هذه القصيدة (١) يبحث على السفر ويرغب في الرحيل
سنة ١٨٩٣ م

وصل الصبح دأباً بالمساء
رتبة العارفين والحكماء
حال شيخ في أعين العقلاء
بالذي حازمته من جـسـلـاء
لك ما كان في زوايا الخفاء
ناظراً في حشاشة الغبراء
ض لعلم يناله أو ثـسـرـاء
فاقرأوه معاشر الأذكياء

اهجر النوم في طلاب العلاء
والتمس بالمسير في كل قطر
ان غض الشباب - فقهه التـر
ومقام الحسام في الغمد يـزـرى
فدع الغمد بيد للعين من فضـه
ان أمضى الرجال من كان سهما
والليب اللبيب من دار في الأر
انما الأرض والفضاء كتاب

★ ★ ★

لم تجزه قرائح العلماء
ش يبحث الركاب في الانحاء
كون بيت له رفيع البنساء

وأقروا العلم بالسرى رب علم
وأطيلوا ما كان من قصر العيـ
وطن المرء مهده وبقايا الـ

(١) قيلت بمناسبة صدور كتاب (السفر الى المؤتمر) : وهو مجموعة رسائل كتبها المرحوم أحمد زكي باشا العالم المعروف ، أثناء سياحته في أوروبا بعد حضوره نائباً عن الحكومة المصرية مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع المنعقد في لندن عام ١٨٩٢ ، وهذه الرسائل تشتمل على ذكر المدن الكبيرة الأوربية ، مع بسط الكلام عن مدينة باريس وما فيها من ضروب الحضارة والمتاحف والمعارض ، وعلى بلاد الاندلس ومدينة لندن .

الى ان قال

حبذا رحلة تمثل تمثيلاً
قد أجادت فيها براعة منشي
فأجل في جمالها نظرات
وتفهم حديثها ثم سافر
لا مزايا الأسفار للقراء
بها اختيار الأخبار والأنبياء
فهى بكر الآداب والانشاء
ليس من يسمع الحديث كرائى

(١)

(تقریظ لاختارات البارودى)

المطبوعة سنة ١٩٠٩ م

يا رائد الشعر لا تقرب منا هله
الا وراء دليل صادق النظر

وان حفظت فلا تحفظ سوى كلم
غر جوامع مثل الآى والسور

ما كل شىء تراه ناضرا زهرا
شتان بين هشيم النبات والزهر

يا طالب الدر بحر الشعر ثم فقف
هذى معادنه ملى من الدر

أوتيت سؤلك فاقراً ما تخيره
من خالد الشعر « سامى » خالد الآثر

(١) اختار البارودى هذه الأشعار ، من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعراء
المولدين ، وابتدأه بشعر بشار بن برد ، ورتبه على سبعة أبواب : الأدب - المديح
- الرثاء - الصفات - النسب - الهجاء - الزهد .

مسجلا في كتاب قيم حافل
 بقول كل طويل الباع ذي خطير
 نعم الكتاب وما أمست صحائفه
 وأصبحت تهب الأيام من غرر
 يا قائل الشعر خذ للشعر أهبتة
 وطربه في سماء الحسن أو فذر
 لا تأخذن تلايب الكلام وكن
 من أن يردك مدحورا على حذر
 كم عربد الغر حول الببت يقرضه
 وآب بعد جهاد بين الحصر
 شعر الفتى عرضه الثاني فأحر به
 ألا يشوه بالأقنار والوضر
 فانقد كلامك قبل الناقدين تحط
 ثاني النفسين من لغو ومن هذر
 واقرا - فديتك - تأمن ما تحاذره
 من قارى هازى أو قارى ضجر

تقریظ کتاب « مختصر القاموس في اللغة »
 تأليف محمود خاطر بك

منهل قد صفا لأهل الضاد
 فيه كانت من قبل كالأضداد
 خفيت أعصرا على النقضاد
 وهوى طوع (خاطر) وقاد

ايها الناطقون بالضاد هذا
 ذا كتاب تجاوزت كلمات
 الفت بينها أواصر معني
 جفوة عولجت ففادت وثامنا

وقال أيضا :

ضمت صحائفه في طيها عجا
 معنى يكون له ان ينتسب نسبا

اخي هذا هو « القاموس » مختصرا
 يجاور اللفظ فيه اللفظ ينفعه

تقريظ مجلة (١) صلق الاخاء » :

يا طالب الآداب دونك فاقتطف
ان رمت شعرا هذه أفنانه
أو رمت نثرا هذه فقراتسه
حكم تقر لها النهى ومناظر
لو كانت الآداب تصبح أمة
من روضها ما تشتهيئه نصيرا
يحملن من طيب الكلام زهورا
قد مثلت بجمالها المنشورا
ان جال فيها الطرف عاد قريبا
لتخيرات (صلق الاخاء) أميرا

تقريظ ديوان فؤاد الخطيب سنة ١٩١٠ م

يا مطرى المولى الرفيع النثرا
يا واقفا بين مغانى اللوى
يا ساقى الندمان حسبي الذى
يا شعراء العصر جوز يتسم
نلت المنى فانزل بواد خصيب
فتحت بالأعزال باب الحبيب
يردد الشاعر ساقى الأريب
خيرا عن الاحسان قل يا «خطيب»

وقال يحييه على تهنئته بالعيد ، بعث بها اليه من السودان فى
١٩١٠ وكان فؤاد الخطيب اذ ذاك مدرسا بكلية غردون بالخرطوم .

أيها الساجع المردد فى السمو
قد قرأت الكتاب لا شلت اليه
كلها قد بعثت لى بكتاب
فاذا ما بعثت فى طى قلبى
دان آى الوفاء والشوق نثرا
نى التى أودعت ثناياه درا
قلت : هذا أو فى البرية طهرا
قلت: لا، بل أنابدا الوصف أحرى

(١) مجلة علمية اجتماعية أدبية شهيرة صدر العدد الأول منها فى يوليو سنة

١٩٠٨ . وكان مديرها حسن أفندى عزت .

تقدير اسماعيل صبرى للمرأة

كان مثال الجمال عند صبرى مجسما فى المرأة ، وهو قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل المعانى السامية ، وأن تفيض على الفنان بالوحى ، وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب إليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة ، ولذلك أيد قاسم أمين فى دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة لأهلها وذوى قرباها ولتقدم لوطنها
النشء الصالح .

وقد دعا الى الاقتصار فى الزواج على واحدة فقط ، واستنكر تعدد الزوجات وكان يدعو الى التوحيد فى ثلاثة : الله - المبدأ - المرأة .

وقال فى ذلك :

يا من تزوج بائنتين ألا اتئد ألقىت نفسك ظالما فى الهاوية
ما العدل بين الضرتين بهمكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ولم تكن المرأة فى عهده قد خرجت من أسر الحجاب ، ولا أسفرت للجماهير وكان يقول : ان من الأسباب التى مسخت حياتنا ، وشوهت أعيادنا فجعلت أعيادنا كأيام نقاهة المريض ، كل ما فيها

همود ، ونوم وأكل ، غيبة المرأة عن المجتمع ذلك السبب هو علة
ما نكابده من جفاء في الطبع ، وجفاف في العيش ، جهومة في
البيت ، وسامة في العمل ، وفوضى في الاجتماع .

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة وهجرنا الأندية لغياب المرأة ،
وسئنا الملاهي لبعدها المرأة وأصبحنا كالسماك في الماء ، والهباءة
في الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد فلا نطمئن الى مجلس
ولا نستأنس لحديث ، فاذا لم تصبح المرأة في البهو عطر المجلس
وعلى الطعام زهر المائدة ، وفي الندى روح الحديث وفي الحفل مجمع
الأفئدة فهيات أن يكون لنا مجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة
سعيدة .

لاحظ مجلسنا من مجالسنا ، احتشدت فيه الرجال والشباب
فماذا نجد ، نجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة ، والمناقشات
الفجة ، الأحاديث الجريئة والكلمات المندية ، والذوق العامي ،
والاحساس البطيء ؟؟

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته ، امرأة واحدة لا غير ،
تجد الحركات تتزن ، والأصوات تدق ، والمناقشات تنتج ،
والأحاديث تحتشم والكلمات تنتقى والذوق يسمو ، والاحساس
يدق لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجعل سمته في عين المرأة
حسنا .

ولقد قدر اسماعيل حمبري سيدتين مثقفتين في عهده ، كان
لهما شأن كبير في المجتمع الثقافي آنذاك .

الأولى هي الأميرة الكسندره افيرينوه ، وكانت سيدة مشهورة
بالاسكندرية ولدت في بيروت وبها تلقت مبادئ العلوم ، ثم قدمت
الى مصر في السنة العاشرة من عمرها ، وعكفت على اتقان اللغات
الفرنسية والايطالية وآداب اللغة العربية ثم تزوجت السير ملتياى
دى افيرينوه .

وأصدرت مجلة فرنسية هي « مجلة اللوتس » بالاسكندرية عام ١٨٩٣ وكانت معرضا لروائع الأدب الفرنسى ، وقد نالت هذه المجلة تقديرا كبيرا من الهيئات المثقفة ، وراسلت جمعية السلام النسائية فى أوربا فأعجبت بها الأسيرة فيزينوسكا رئيسة الجمعية ومنحتها أحسن ما لديها وهو لقبها واسمها .

وكانت لها مكانة عظيمة عند أمراء الشرق وأميراته ، وكانت تتمتع بجمال الخلق والخلق يشهد بهما من عصرها . ثم أصدرت مجلة نسائية علمية أدبية فكاهية تصدر فى آخر كل شهر ، صدر العدد الأول منها بالاسكندرية فى ٣١ من يناير سنة ١٨٩٨ ، ١٣١٥ هـ وآخر عدد منها صدر فى ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكان اسمها « أنيس الجليس » .

وكان لها صالون أدبى يجتمع فيه الكتاب والأدباء ، أجنب ومصريين وقد أعجب بها اسماعيل صبرى كسيدة من خيرة سيدات المجتمع فى عصرها أدبا وعلميا وجمالا وأخلاقا - وقد سجل إعجابها بها فى مقطوعات شعرية رائعة نأتى فى السطور القادمة على بعض منها .

فقد كتب اليها ، داعيا الى اعادة صدور مجلتها العربية « أنيس الجليس » التى احتجبت عن الظهور سنة ١٩٠٤ .

ندرياره النهى والذكاء
من سفور فى عالم الأدباء
يقف الحق فى صفوف النساء
ليس يخفى الا على الجهلاء
ن طلاب الحقوق حول لواء
س سفيرا مسند الأراء
انما اللطف علة الحسناء
عارضتهم بالحجة البيضاء
اثرا فى خواطر الفضلاء

خبرى القوم يا سمية اسكـ
هل لوجه «الأنيس» بعد احتجاب
فترى فيه كل بحث جديد
ان للغانيات حقا علينا
فاجمعى جيشهن حولك ان شئ
وابغى من ضياء فكرك فى النا
وافتحى باب كل بحث بلطف
ان تعارض بك الرجال نساء
ان للفضليات فى كل عصر

ثم كتب اليها يقرظ بلاغتها في سنة ١٩١٣

لا فض عقده من فيك
يدخره تجاره في سلسوك
من نظيم ان شئت أو من سبيك
جب عنا جمالها من شكوك
وفي أصل دوحة تنميك
عامرا بالشמוש من أهليك
بهر الحاضرين في ناديك
غض من صوت معرجا ذكوك
لم تكذب سيما الا مارة فيك
ان دعوت الاله أن يقيك

انظمي الدرياسمية (اسكندر)
وانثريه فالدر در وان لم
واجعل فوق مفرق العصر تاجا
وأعطى عن الحقيقة ما يد
بارك الله في خلائك الغر
ووقى من حوادث الدهر بيتا
ان للفضل رونقا وجمالا
قد تفردت في الأنام برأى
وتجملت بينهم بخلال
ايه لا كان سامع لم يؤمن

وكتب اليها في مناسبة أخرى :

بمصر عنى دار اسكنـدره
فى سربها مقبلة مدبره
يا عاطر الأنفاس - أن تذكره

بالله يمم يانسيم الصبـبا
وحياها بين المـها ان بسـدت
واذكر لها ما بيننا علـبا

ثم أرسل لها مقطوعة بعنوان « تحية »

بوجهك الباهر المنير
تيه غنى على فقير
فالحب أرضاه باليسير

أميرة الفانيات أهـلا
تبهى على صبك المعنى
وارمى له بعض ما يرجى

أما المرأة الثانية التى كانت أثيرة باهتمامه وتقديره ، وطالما
قضى فى صالونها الأدبى الساعات الجميلة ، يترع من روائع الأدب
والفن ، مع صفوة من فطاحل رجال الأدب والثقافة والعلم ، فهى
الآنسة « ماري خير زيادة » والمعروفة بالآنسة « مى » .

وكان لهذه المرأة أثر كبير في الحياة الأدبية في عصرها ، وقد ولدت بفلسطين وقدمت الى القاهرة في العقد الأول من هذا القرن ، مع والدها الياس زياده حيث أصدر جريدة المحروسة ، وأخذت في اتقان اللغة العربية والالمام بأدائها وحضرت لذلك محاضرات الجامعة المصرية القديمة ولم تلبث أن ألت الماما واسعا بالفلسفة والتاريخ الاسلامى ، وقد تتلمذت حينما على أساتاد الجيل أحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، واستطاعت بعد ذلك ممارسة الكتابة العربية في مجلة الزهور التى كان يصدرها إنطون الجميل ، وظلت توالى صحف الأهرام والهلال والمقتطف وصحف لبنان وسوريا الكبرى بمقالاتها العربية التى آثرتها على الفرنسية التى تجيدها ، لأنها أقدر فى رأيها على أن تجمع بينها وبين قراء العربية فى كل أرض عربية .

وقد كتبت فى هلال ابريل سنة ١٩٢٨ تفخر بإيثارها العربية على جميع اللغات الأجنبية التى تتقنها ، لأنها تعلمت اللغات الأجنبية لتستطيع تبادل الرأى مع من لا يعرف العربية من رجال الأدب والعلم .

وكانت مى ترى أن العالم كله وطنها ، وأن الانسانية كلها شعبها ، ولكنها كانت مولعة بالشرق ولعا لأحد له ، تتغنى له ، مفاخرة بماضيه ، متحمسة لايقاظ بنيه لتفتح أمام البصائر آفاق الأدب الرفيع والانسانية المثلى .

وتعتبر « مى » أول وأقوى خطيبة عرفتها المناير النسائية فى الشرق العربى فى العهد الحديث فقد كانت تمتاز ببيان ساحر وامتلاك لكل مقومات الخطابة كسلامة الذوق ؛ فى انتقاء الموضوع مما يجعل الكلام مطابقا لما تقتضيه الحال ، ونظرا لثقافتها الواسعة والملمها بالكثير من العلوم والمعارف ودراستها العميقة لأداب اللغة العربية ، فقد أتاح لها ذلك أن تكون من أعظم خطيبات الشرق ، فى تاريخه القديم والحديث .

ندوة مى :

والدارس لتاريخ مى وتأثيرها فى البيئة الأدبية التى عاصرتها؛ ذلك التأثير الذى ما زال ممتدا الى يومنا هذا ، يدرك تماما أنه كان لمى تأثير واضح فى الأدباء الذين يحضرون ندوتها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، أو يستمعون اليها اذا حاضرت الجمهور فى القاهرة ولم يكن فى مصر حتى سنة ١٩٣٤ ندوة أدبية مشهورة غير ندوتها . وان كان المعروف أن الأميرة « نازلى فاضل » كانت تعقد ندوة قبل ذلك التاريخ ، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وفى مطلع هذا القرن، ولم يكن رواد ندوتها الا الأمراء والعظماء تمشيا مع التقاليد المرعية . ولم تؤثر هذه الندوة فى الاتجاهات الأدبية المعاصرة . لأنها كانت وقفا على طقة الخاصة ؟

على أن ندوة مى تعتبر أولى الندوات التى مثلت مختلف العقلية والاتجاهات الفكرية آنذاك وساعدت على تكييف المزاج الأدبى وخلق وعى ثقافى ونبسط المعقد من الفلسفة والعلوم ، وتحليل ما يستعصى فهمه فى جو علمى بعيد عن الجمود الأكاديمى والجفاف المدرسى . وكان لظهور فتاة « عربية » ، فى ميعة الصبا وعنفوان الجمال ، تجيد الحديث باللغة العربية الفصحى وكثير من اللغات الأجنبية الحية ، وتعتلى مكان الصدارة بين خطيبات العرب تدير فى دارها صالونا أدبيا يجمع صفوة المثقفين وأئمة العلم والأدب فى عصرها حدث هام فى الحياة الأدبية فى البلاد .

وفى ذلك يقول المرحوم مطران فى حفل رثائها سنة ١٩٤٠ :

أقفر البيت أين ناديك يا مى
صفوة المشرقين نبلا وفضلا
فتساق البحوث فيه ضروبا
ويصيب القلوب وهى غراث

إليه الوفود يختلفوننا
فى ذراك الرحيب يعتمروننا
ويدار الحديث فيه شجونا
من ثمار العقول ما يشتهينا

وكان من زواد هذه الندوة المشهورين :

أحمد لطفى السيد - اسماعيل صبرى - الشيخ مصطفى
عبد الرازق - عباس العقاد - الدكتور زكى مبارك - أنطون الجميل
- منصور فهمى - فؤاد صروف . . . وغيرهم من كبار رجال الأدب
والفكر والدين والعلم والفن .

ولقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشخصيتها ، وكانت
فى نظره ، المثل الأعلى للمرأة العربية المثقفة ، الذى يجب أن يقتدى
به ، اذا أريد للشرق النهوض وللمجتمع العربى أن يرقى . وكان
من المواظبين على حضور ندوتها الأدبية المذكورة وقد تأثر شعره
العاطفى الرقيق بهذه الندوة ، وقد ظهر ذلك فى بعض مقطوعاته
الشعرية الرائعة ومنها قوله لها فى موعد الزيارة :

روحى على دور بعض الحى حائمة كظامى الطير تواقا الى الماء
ان لم أمتع بى ناظرى غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء
وقال لها مهنتا بعام جديدة :

ياغرة اليوم جوزى الأفق صاعدة الى السماء بآمال المحيىنا
انى سألت لك الأيام صافية يامى قولى معى بالله آمينا

وكانت آراء صبرى التقدمية فى تحرير المرأة ، ودعم كيانها
بالعلم والثقافة والتربية ، واطلاق قيودها وفك أسارها من التقاليد
البنائية ، واخراجها الى المجتمع الخارجى لتشارك فى معركة البناء
والعلم والنهوض الوطنى صدى لتأثره بمنتدى (دى) وتقديره
واكباره لمكانتها .

ولم نعثر على شىء من القصائد التى قالها عنها صراحة ، سوى
المقطوعات المذكورة آنفا ، أما ما أرسله لها من شعر فلم يصرح فيه

علانية عن شخصيتها ، ونرجح أن الأبيات الآتية هي تسجيل
لعواطفه الجياشة نحوها :

ياظبية من ظباء الأنس راتعة بين القصور تعالى الله باريك
هل النعيم سوى يوم أراك به أو ساعة بت أفضيها بناديك
وهل يعد على العمر واهبه أن لم يجمله نظم الدر من فيك

وتكاد لا تتغير صورة هذه الفتاة المنعمة ، ابنة الترف
والقصور ، التي تنهادى في ناديها ؛ تنثر الدر البليغ على الحاضرين.
والشاعر يشناق إليها ، ويسهر من أجلها كلما ابتعد عنها ، وعن
مجلسها ، وهو لا يبغى منها شيئا ، سوى أن يكون قريبا منها وفي
حمى رضاها :

أصبو اليك اذا النســــــــــــــــــــة يم سرى يمثل لى شــــــــــــــــــــذاك
أو دارت الكاسات بالصــــــــــــــــــــة هباء تخبر عن لــــــــــــــــــــاك
وأعد قريبك مشتــــــــــــــــــــــــها ي وغايتى القصوى رضاك

حفلة تأبين باحثة البادية :

وفي السابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ ، ماتت ربة
القلم ، الكاتبة الأولى في مصر والمفكرة اللوزعية السيدة ملك حفنى
ناصر بنت الشاعر الأديب الكريم حفنى بك ناصر الصديق الحميم
لشاعرنا اسماعيل صبرى - وأقيم أول حفل تأبين في مصر بل في
الشرق العربى كافة فى العهد الحديث لأول كاتبة مصرية ، تقديرا
وتكريما لعلمها وأدبها والأهداف النبيلة التى سعت فى سبيلها .

وأقيم هذا الحفل الذى كانت تعلوه المهابة والوقار بالجامعة
المصرية القديمة بإشراف وترتيب زعيمة النهضة النسائية هدى

شعراوى . وكان هذا من الأحداث الاجتماعية المهمة فى التطور الأدبى بالبلاد ، حين اجتمع رهط كبير من كبار الكتاب ورجال الفكر ، يتحدثون عن مزايا الفقيده الجليله « باحة البادية » فى القاعة التى طالما أن سبق لها المحاضرة فيها ، ويكتمل عقد هذا الحفل الخالد فى تاريخ مصر برئاسة امام الشعراء وشيخهم (١) اسماعيل صبرى القاضى الكبير وقد أضفى بحضوره على الحفل جلالا ووقارا ، وكان قبوله لرئاسة الحفل اعلانا عاليا ، لتكريمه وتقديره لذكرى امرأة (٢) مصرية كانت طليعة النهضة النسائية فى البلاد ، وايمانه بما سيكون للمرأة المثقفة من شأن كبير فى مستقبل مصر والشرق العربى بأسره .

وقد استهل الحفلة بكلمة عميقة مؤثرة عن مزايا المحتفل بذكرها وأثرها فى المجتمع المصرى آنذاك .

ولما سمع المرحوم حفى ناصف الشاعر الكبير ما ألقى فى الجامعة من المراثى فى تأبين كريمته استبد به الحزن ، وأمعن به الأسى ، وبلغ به التأثر مداه ، وعاد الى البيت لينام ونحى غطاءه عنه ، وأخذ يبكى بكاء مرا ويزفر زفرة الشكى ؛ مما أثر فى صحته فاشتد عايمه ما كان يشكو به من داء - حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أيام .

(١) حضر اسماعيل صبرى باشا الحفل نيابة عن عدلى يكن باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت .

(٢) السيدة ملك حفى ناصف اول امرأة مثقفة فى مطلع هذا القرن نالت دبلوما من مدارس الحكومة عام ١٩٠٣ ، وكانت كاتبة مجيدة ، وأول فتاة مصرية تعلى منبر الخطابة العربية ، كذلك كانت اول امرأة مثلت المرأة المصرية فى مؤتمر عام وأول من وضع أساس النهضة النسائية فى الشرق العربى .

كتاب الفتاة والبيت (١)

ولقد قام المرحوم انطون الجميل باشا (رئيس تحرير صحيفة الأهرام سابقا) بترجمة كتاب « الفتاة والبيت » من الانجليزية الى العربية - تأليف السيدة ج - س - دويوك ، فقدم له اسماعيل صبرى بمقدمة رائعة ، تدل على ايمانه وتحمسه لتعليم المرأة وقد جاء في هذه المقدمة ما يلي :

صديقى العزيز أنطون الجميل بك

قرأت كتابك (الفتاة والبيت) ، وها أنا أكتب اليك والطرب أخذ منى كل مأخذ ، وكيف لا أطرب وقد شاهدت من أساليب الكتابة وحسن الانشاء ما لم يتفق قبلك لكاتب ينقل من لغة أجنبية الى لغتنا العربية موضوعات تتعلق بحياتنا العمرانية وترتبط بنهضتنا العلمية ، لذلك افتتحت خطابى بقوله : « قرأت كتابك » الآن من ترجمه كما ترجمت ، حقيق أن يشارك المؤلف فى فضله ، وأن يشاطره فى فخره ؛ فاذا اقبل لأولهما « أجدت » قيل للثانى « أجدت وأحسننت » .

نحن فى حاجة ماسة الى تعليم أبنائنا وبناتنا ، بل ان حاجتنا الى تعليم بناتنا أشد ، لأن بنت اليوم أم الغد ، وحضن الأم فى نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله ، ولأن النساء نصف مجموع الأمة وهيئات أن ينهض مجموع نصفه أشل ، وعبثا يحاول الارتقاء ، اذا لم يعالج بالعلم شلل ذلك النصف - (وهو كناية عن أمهاتنا واخواتنا وزوجاتنا وبناتنا) واذا لم تتولى التربية الصحيحة بجانب العلم ، تهذيبه وتكميله .

(١) ديوان اسماعيل صبرى اشراف أحمد الزين .

الباب السادس

المتنوعات

- شعره فى الوصف
- شعره فى الهجاء
- شعر المعارضات
- شعر المقطوعات
- اسماعيل صبرى والبارودى

شعره الوصفى

النيل

ما أعجب النيل ما أبهى شمائله
من جنة الخلد فياض على ترعرع
ليست زيادته ماء كما زعموا
فى صفتيه من الأشجار أدواح
نهب فيها هبوب الريح أرواح
وانما هى أرزاق وأربواح

البرق والسحاب

وفيهما يحزن الى عصر الشباب

ابرق يتوج هام الربا
كان سنه عيون مراض
والا فتلك مصابيح قبل انطفاء
يحاوون تحقيق شمس الضحى
بأيدي كماء عراها الونى
والا فتلك سيوف تميل
والا مواطىء خيل على
وما من صخور تراها العيون
صخور تطاير منها اللظى
سوى غاديات تؤم الفلا
تكد تطير اشتياقا لها
إذا أشرفت ظمئات الربا
فمد إليها رؤوس الربى
وجرت عليه ذيول الحيا
وانست جوانبه ما الظما
إذا هى مرات بواد بحيل
كسته مطارف من سنس

فقد كان روضا شهى الجنى
يميل بعبء ثمار المنى
وكم ذا يشوقك عصر الصبا
تفطر من ذا ومن بعض ذا
كأنك مستعذب للـأسى

سقى ربيها العذب عهد الشباب
إذا العيش كالقطن فى لينه
أقلىبى كم ذا توالى الحسنين
رويدك انى رأيت القلوب
صحبت الأسى بعد ذاك الزمان

الى سرحة

قال هذه الأبيات يخاطب بها شجرة فى منازل أحبابه ويتمنى جوارها

سقاك دمعى اذا لم يوف ساقيك
فتك الهجير بمثل فى نواحيك
كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك
ولا يرن بصوتى غير واديك

يا سرحة بجوار الماء ناضرة
جار عليك - وهذا الظل منتشر
فمن معيرى جناحى طائر غرد
فلا أنفر من أرض غرست بها

شعره في الهجاء

في (١) مخادع (نشرت في ١٩٠٩)

لك ألفاظ اذا احتجت الى خير كانت شراك الخيرين
فاذا استغنيت كانت أسهما نافذات في قلوب المحسنين
لو درى رب المسروعات رمى لك مارجفت من حصن حصين
قد فضحت الطين والماء معا يا سليل الطين والماء المهين

★ ★ ★

في جاهل سفيه (نشرت في ١٩٠٩)

بذرت جهلا وهجرا فاحصد أناة حلیم
روث اللسان سهاد في روض كل كريم

★ ★ ★

في من نال العلا خداعا بلا استحقاق

هنيئا برغم العلم والفضل والتقى علا نلتها قسرا وحاولتها ختلا
تسلقتها لما رايت حمايتها ينودون عن أبوابها الوغد والنذلا

(١) انه يصف المخادع بطلاوة الفاظه حتى انه يتصيد بها قلوب الخيرين ،
ويلاحظ انه استعمل في هذا البيت الشراك بمعنى حبال الصائد .

شعر المعارضات

معارضة لقصيدة القيروانى (١) التى أولها

ياليل الصب متى غلده أقيام الساعة موعده

نشرت سنة ١٩١٠ ، وقد عارض هذه القصيدة أيضا من شعراء العصر المرحوم أحمد شوقى وولى الدين يكن والأمير شكيب ارسلان .

أقريب من دنف (٢) غلده	فالليل تمرد أسوده
والتفت تحت عجاجته (٣)	بيض فى الحى تؤيده
حرب عندى لسعرها	شوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هوى	هل من آسى يتعهده
حتام يساوره كمد	يبلى الأحشاء تجلده
والام يصارعه ألسم	ان هم يقيم ويقعه
فى القصر غزال تكبسه	غزلان الرمل وتحسده
صفرت كفى منه ومضى	وقد امتلات منى يسده

(١) هو العلامة الأديب أبو الحسن على بن عبد الفنى الفهرى المقرئ الضريف الحصرى القيروانى الشاعر المشهور ، وقد على جزيرة الاندلس فى منتصف المائة الخامسة ، وتوفى بطنجه سنة ٤٨٨ .

(٢) الدنف : الذى لازمه المرض وثقل عليه .

(٣) العجاجة : الغبار ، شبه به ظلمة الليل .

كم صفت التبر له شركا
وأشاور شوقي بل أدبي
مولاي أعينك من حزم
أدرك - بحياتك - من رمقى
قدبان الحب لدى عينى
شوقى ، جود فى الشعر وقل

وقضيت الليل أنضده
هل أقصر أم اتصيلة
لا يرحم قلبا موقده
مبات هواك يهدده
بين وهذا الشوق يؤكده
آمنت بأنك أوحده

شعر المقطوعات

الى المرحوم أحمد شوقي بك
فى منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ م

أرسل أحمد شوقي الى اسماعيل صبرى بهذين البيتين :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا
بعد الهدوء ويهمى عن مآقيننا
لما تفرق الماء فى دمع السماء دما
هاج البكا فغضبنا الأرض باكيننا

فأجابه اسماعيل صبرى بهذه الأبيات :

يا وامض البرق كـم نبهت من شجن
فى أضلع ذهلت عن دائها حيننا
فالما فى مقبل والنار فى مهج
قد صار بينهما أمر المحبيننا
لولا تذكر أيام لنا سلفت
مآبات يبكى دما فى الحى باكيننا
يا آل ودى عودوا لاعلمتكم
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا
أزهار أندلس هبى بواديننا

★ ★ ★

العناق

نشرت عام ١٩٠٧

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابنا
كان حبيبا فى خلال حبيبه تسرب أثناء العناق وغابا

★ ★ ★

ذكرى وتشوق

نشرت فى ١٩٠٦

الا من لمقروح الجوانح (١) ساهر

تساوره (٢) الآلام جهد المساور

يحن الى عصر تقضى وأسرة

أفاضت عليه مثل عرف الازاهر

وتمنحه الذكرى - اذا شفه الحمى

واهل الحمى شوقا - قوادم (٣) طائر

الا أيها السلك الذى منه أصبحت

تمشى على جسر بنات (٤) الخواطر

(١) الجوانح : الاضلاع .

(٢) تساوره : تواتبه وتغالبه .

(٣) قوادم : ريش مقدم الجناح .

(٤) بنات الخواطر : الأفكار .

دعى الله عصرا قد نماك فانه

أفاد ذوى الحاجات أعظم ناصر

لأنت غياث (١) المستغيث من النوى

وعون سخى اللمع سمح المحاجر

وقوله فى العزة والاباء :

بهدام السـلو حتى رويت

يني كئوسا من بعدها ما ظميت

ويكقل لى : من أنت انى نسيت

فوقه نحو داركم مارضيت

نح كأس الغرام انى سقيت

لم يزل بى ساقى التسلى يساق

ايها التائه المدل علينا

لو فرشت الطريق درا لا خطو

وفى هذه المقطوعة يحى الشاعر الكرامة والعزة الشخصية

والاباء ، ويربأ بنفسه أن تكون بمطية تمتطى ، وقد غره فى الناس

أقوالهم المعسولة ثم هى بعد ذلك تشف عن مكر ولووم وانحطاط .

الى اسكندر فهمى باشا مدير السكك الحديدية

يشير بهذين البيتين الى اعتزاله منصبه

اذا فكرت فيك - وضاع حدسى

كأنك خارج من بيت عرس

أصلب أنت ؟ قل لى ، حار أمرى

خرجت من الشريط ولم تهشم

★ ★ ★

الى يوسف سابا باشا

يشير بهذين البيتين الى توليه رئاسة شركة مياه القاهرة

أين (سابا) ذو المزايا الباهرة

لحوه فى مياه القاهرة

أين (سابا) أين (سابا) ياترى

قال لى قسوم ثقات : انهم

(١) غياث : للعين ، النوى : البعد ، سمح المحاجر : كريم بدموعه .

في جوف الحيتان

يريد صبرى بهذين البيتين نفسه ، ويشير الى أنه قد أصبح
منسيا لا يذكر اسمه عند توزيع هذه المناصب ، لاعتزاله وعدم طمعه
في شيء منها فكأنه في جوف الحيتان :

أين (صبرى) من يذكر اليوم (صبرى)

بعد أعوام عزلة وشهور

اسألوا الشعر فهو أعلم هــلا

أكلته الاسماك طى بحسور

في مسقى « سبيل » (أم عباس)

وهي المغفور لها بمباقادن والدة عباس باشا الأول والى مصر
وصاحبة الأوقاف الكثيرة على التعليم .

أسست هذا على أس التقى (أم عباس) ملاذ المعوزين

ايها الظامى قف نلت المنى فى حمى جدة أم المحسنين(١)

(١) يشير بهذا الشطر الأخير الى ما هو معروف من أن المغفور لها بمباقادن
كانت جدة أمينة خانم الهامى والدة الخديوى السابق عباس حلمى الثانى ، وذلك
من جهة الأب الهامى باشا حفيد الأولى ووالد الثانية ، وكانت والدة عباس حلمى
تلقب (بأم المحسنين) لكثرة ما كانت تبذل من الحسنات للفقراء .

شعره الغنائى

كان صبرى يتذوق الموسيقى وتطرب أذنه للغناء العربى الذى عاصره عند محمد عثمان وعبد الحمولى ، ولعل هذا التذوق والطرب هما أساس ما يفيض به شعره الوجدانى من عذوبة وألحان موسيقية بديعة ، فقد كانت أذنه الداخلية تحس قياس الذبذباب والتموجات الموسيقية فى الشعر وكان يعرف كيف يجمع الألحان الحلوة بعضها الى بعض فتأسر النفوس وتجذب القلوب ، وكأنما أتاحت له جميع الأدوات لكى يحسن شعره الوجدانى فهو حينما يرقى بمحبوبته فيجعلها علوية سماوية أو ملائكية ، وحينما يصور لوعات حبه وما يتلظى به قلبه من آلام ونيران ، وهو فى كل ذلك يصف حيانقيا صافيا رقيقا وهو يؤدى هذا الوصف فى عبارات شعرية حلوة تسند العبارة أختها وتحوطها بجرسها ولحنها العذب .

ولكى يؤثر تأثيرا عميقا فى قلب السامعين كان يختار عبارات أغانيه من اللغة العامية لتكون أكثر تأثيرا وقربا من نفوسهم بل اننا نجده أحيانا يخرج تماما عن اللغة العربية الفصحى ويختار لغة الشعب اليومية فيؤلف منها الأغاني ، يريد لها أن يلحنها الملحنون وأن تجرى على لسان الشعب فى صباحه ومساءله وقد غنى له فعلا محمد عثمان وعبد الحمولى وهما من أئمة الغناء فى عهده .

وصبرى من هذه الناحية يعد أحد فحول الشعراء الذين أسهموا فى الارتفاع بمستوى الأغنية العربية الوجدانية وعملوا على تطويرها وتغييرها عما كانت فى عهده من معان مبتذلة سواء فى تصوير المرأة أو فى تصوير الحب نفسه ولذاته ، فقد أشاع فى أغانيه نفس هذه الروح التى وصفناها آنفا وليس من شك فى أن أحمد شوقى اقتدى به فى أغانيه الوجدانية التى غنى بها عبد الوهاب فقد حاكاه محاكاة تامة فى معانيه ورقته وخفة روحه .

واستمع الى هذه الأغنية لصبرى :

الخلو لما انعطف أخجل .. جميع الفصون
والخذ - آه - ما انأطف ورده بغير العيون

★ ★ ★

كما بدا لى الحبيب يشبه لبدر التمام
صار الفؤاد فى لهيب فى الحال وهام بالأوام

★ ★ ★

وحين رأى الحب فيه زاد والغرام اشتهر
من العلول السفيه حاذر وعنى اقتصر
حببت أشوف لى سبب أبنى عليه الكلام
لكن لأيت الطلب بعيد وصعب المرام

★ ★ ★

ارحم يا سيد الملاح مفرم ضناه البعاد
دمعه على الخند سباح من حر نار الفؤاد

يلى ابتليت بالهوى وصرت مفيرم أسير
خلى اصطبارك دوا حتى يهون العسير

★ ★ ★

الحب حاله عجب يلى فيه العذاب
ذكر الحبيب فيه طرب ودهمع عينه شراب

وواضح أننا نجد فى هذه الأغنية نفس الرقة التى وجدناها
فى شعره الناضج فهو يشكو من نيران الحب ، وهو يلوم العذول
السفيه الذى كان سببا فى قطيعة المحبوبة وهجرها ويناجى
صاحبتة وينادىها مستعظفا مسترحما ونيران الحب تلذع لذعا ومن
طريف ما غنى له هذه المقطوعة (التى نظمها وهو طالب) .

يا نرجس الروض مالك سلطت لحظك على
الى كوانى جمالك لكن سببها عنى

★ ★ ★

لأجلك هجرنى منى وفيك جفيت كل صاحب
ولأجل أربك ووصلك صاحبت غير الحبايب

★ ★ ★

خلى صدودك وهجرك واطفى لهيبى ووجدى
ساعة وصالك وأرباك أغلى من العهر عندى

★ ★ ★

بصلى انتم رضيتم وهان عليكم بعادى
وانتم (١) أطعتم وادى الله يصبر فؤادى

(١) أطعتم الكلمة العامية للفظ قطعتم .

بدى أديك من دموعي وارسم عليهم أساور
وان كنت خائف عذولى ارخى شعورك ستائر

وكانت هذه الأغنية من الأغاني المشهورة التي غناها له عبده
الحمولى .

ومن أغانيه أيضا :

وأعرض لحسبك أو راء	واكتب	وأدون
وأبات صريع الآشواء	واحسب	وأضمن
دا هجر وصبابه وفراء	يارب	هسون
وارحم ألوب العشواء	داشيء	يجسنن

ومن أغانيه أيضا :

أوصل نساني العتاب وكان كثير	وبعدما شفت العذاب هان العسير
وردت الروح فى العليل	والرب أسعف بالجميل
شجن كثير ونوم أليل	كن لى نصير

ومن أغانيه أيضا :

محبك فى هنا وسرور	صفا له يوم صفيت الدهر
مليت البيت علينا نور	سلامات (١) يا شئى البلد
سلامات يا منى الأحباب	وأهلا يا فريد العصر
جعلت العمر نصه غيباب	عن المغرم ونصه هجر

(١) يا شئىء - اللفظ العامى من شقيق .

وما ينسب اليه من المواليا قوله

فى ظل أهداب عيونك ورد خـدك آل
وحسن يوسف ميراث لوجهك آل
والشمس ويا الأمر فى حسنهم لك آل
لوألت للصب آل : كل الملاح جنـدى
ولى الجمال أجمعه من غير مشارك آل

★★★

ومن أغانيه أيضا ما نظمه تحية للسلطان حسين كامل

حتى الأهلة فى الأعلام
وأرا السلام طول الأيام
غمرت ملكك بالاحسان
حسين ، كده يكون السلطان
ويا النجوم شاربات الفخر
على أمر طالع فى مصر
يبات يسابىء فيه أمـرك
الله يبارك فى عمرك

ونظم أيضا أغنية فى مدحه

فى عابدين سلطان
شوف دا ودا بامعان
دا فرع اسماعيل
فين بدر وادى النيل
وفى السما بدر زهى
ان كنت تفهم وضاهى
حاسب دا مولى الموالى
وفين بدر الليالى

ومن أغانيه المشهورة التى غناها المغنى المشهور محمد عثمان :

أدك أمير الاغصان
وورد خـدك سلطان
من غير مكابـر
على الأزاهـر

والحب كله أشجان يا ألب حـاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر

★★★

يا ألب آدانت حبيت ورجعت تندم
صبت تشكى مالا يت لك حد يرحم
صدات أولى ورأيت ذل المتسيم
يا ما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

★★★

أعرض لحسبك أورا واكتب وأدون
وأبات صريع الأشوا وأحسب وأخمن
د أهجر وصبابه وفراء يارب هـون
وارحم ألوب العشاء دأشء يجنن

ولهذه الأغنية قصة طريفة وهي أن اسماعيل صبرى باشا كان مدعوا في حفل خاص ، وكان من ضمن برنامج الحفل أن يقدم المغنى (محمد عثمان) وصلة غنائية ، وبينما كان يستمع اليه انتابه شعور بالضيق والمضض ولم يرقه ما تغنى به من معانى مبتذلة ، وصور سوقية ، فسأله بعض جلسائه : هلا ينظم الباشا مقطوعة نستغنى بها عن تلك الأغاني الغير مناسبة فأجابهم الى ذلك ، واشترط أن تغنى فى نفس الليلة ، فأجابه محمد عثمان الى شرطه وغنى بهذه الأغنية ولعل من هذه الحادثة ، يتضح لنا أثر اسماعيل صبرى البين فى رفع مستوى الأغاني الشعبية ، والصعود بها الى سمو الخيال وجمال المعانى ورقة الاشارات ، وهكذا بدأ يشق للأغنية نهجا جديدا ، تظهر فيه خالصة نقية من الأوشاب والتفاهة

والغثاة - بعد أن هذبها ورققها وبذلك كان اسماعيل صبرى
رائد الاغنية الحديثة فى القرن العشرين .

وفى العشرينيات ، حينما ظهر نجم سيدة الغناء العربى .
السيدة أم كلثوم فى سماء الفن الغنائى ، وبتوجيه أستاذها الشيخ
أبو العلا محمد ، غنت لاسماعيل صبرى مقطوعتين وهما :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى ص ١١٥ من هذا الكتاب
أقصر فؤاد فما الذكرى بنافة ص ١١٥ من هذا الكتاب

وقد ورد هذا فى الكتاب الشامل لجميع أغانى سيدة الغناء ،
وكذلك أكده أصدقائى الذين سمعوا هذه المقطوعات تغنيها أم كلثوم
فى أول مراحل حياتها الفنية ، ولا توجد تسجيلات لهذه الأغانى
معروضة للبيع للجمهور ، حيث أن الاسطوانات الخاصة بها يحتفظ
بها هواة الأغانى القديمة لأم كلثوم .

اسماعيل صبرى و البارودى

عاد امام الشعر الحديث وقائده المظفر محمود سامى البارودى من سيلان فى اول سبتمبر من عام ١٨٩٩ بعد جهود المخلصين له وعلى رأسهم الامام محمد عبده ، وبعد أن قاسى مرارة النفى وعذاب النى وفرقة الصحاب ، وموت الأعراء ، ونال ذلك من صحته ومن بصره الشئ الكثير .

وأقبلت مواكب الأدباء والشعراء من مصر والبلدان العربية ، ومن بقى من رفاق الجهاد تحج الى داره ، وتهرع الى كرمته ، تحي الزعيم العائد وتهنى بالعودة ، وقد كانت عودته عيداً نشر البشر فى ربوع الأدب وأجواء العلم والشعر فى طول البلاد وعرضها .

فتسابقوا اليه ، يعيد حبل المودة من كان على معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه ، وعرفوه قبل رؤيته ، من خلال شعره وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق الى سماع قيثارته تعزف لحن اللقاء .

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية البارودى استقبالا حارا فيكتب محرر المؤيد ، عاد محمود سامى باشا البارودى الى القاهرة عائداً من منفاه ، والله أعلم لمقدار ما خامر قلوب أهله

وأصدقائه من الفرخ ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه فيه
عندما وطئت أقدامه تراب النيل ، بعد أن بلغ به اليأس منتهاه .

ثم يصف الكاتب هيئة الشاعر بعد عودته من منفاه ،
ويسترسل معه فيسأل عن رفاقه في جزيرة سيلان وهم أحمد عرابي
ويعقوب سامي وعلي فهمي فيجيب :

« ان صحتهم جميعا سيئة ، وتندهور يوما بعد يوم ؛ فعسى الله
أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه ، فيعودوا الى الديار » ، كان
كلما استطرد الحديث عاد الى ذكرى آلامه التي عاناها في منفاه خاصة
بعد أن أصيبت عيناه فقال :

« ما أشد ما كنت فيه من الأكدار والأحزان ، وحيدا لا انسان
تود الحديث اليه ، ولا أنيس تلد محاضرته أو تطيب معاشرته وكان
لى من مطالعة الكتب والصحف خير ما يتسلى المرء فى وحدته ، ويأنس
اليه مثلى فى غربته ، فلما أصاب بصرى ما أصابه فقدت كل لذة
فى الحياة (١) .

ثم ينصح الأطباء البارودى بسكنى حلوان لعل هواءها الجاف
ومياهها المعدنية تبليه من مرضه وترد له مازاغ من البصر فى دار
تجاوز الشاعر أحمد شوقى ، ويلتقى شباب الشعر بشيخوخته ،
ويصف شوقى جاره نزيل حلوان فيقول :

« منكوب كريم اجتمع لشهرات الدهر فيه ما تفرق فى البراءة
من جاء يطويه ، ونعيم يدويه ، وولد يرديه ، ونور يطفئه ، وحسب
وضاح يخفيه ، وحكم نافذ يحكم فيسه ، جاورته بحلوان الشهور
الطوال يشد بيتينا طنبا ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ،

(١) المؤيد ، على يوسف ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٩ .

وإذا الشاعر عظيم . ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيتَه الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه .

وفي حلوان كان يزوره اسماعيل صبرى و خليل مطران وغيرهم من أهل الفكر والفن والأدب وعشاق الشعر ، وكثيرا ما كان يعرض عليه صبرى خدماته وفاء منه لاسم الشعر ورائده في العصر الحديث ، وقد عرض بصلاته به بعد منفاه ، حرمانه من الاتصال به وهو في القمة من المناصب ، ثم رئيسا للوزارة في عهد الثورة العراقية وكان هو حديث التخرج من معاهد القانون بفرنسا ، يدرج في سلك المناصب القضائية بعيدا عن القاهرة وأجوائها .

وقد أفاد صبرى من اتصاله بالبارودي أيما فائدة ، وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العراقية الا أنه حيثما أشار اليه ؛ تسجيل (١) . مذكراته عن الثورة لفائدة مصر وأجيالها المقبلة ، أبدى نفوره من هذه الفكرة ، ولما رجاء أن يذكر سبب الامتناع عن ذلك قال (ان علمي بأن الغضب في طباعى : وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات ؛ فيبغى القلم على الرجال) وعند هذا الحد من الحديث صمبت اسماعيل صبرى احتراما لرغبة الزعيم المجروح . ولم يقاتحه في هذا الموضوع نهائيا .

وفي ١٧ مايو سنة ١٩٠٠ أعاد الخديوى عباس الثانى الى البارودي ألقابه وأملاكه الموقوفة ، فتقبل الدنيا عليه بعض الأقبال بعد نفورها الطويل ، ويشكر البارودي لعباس ويمدحه بقصيدة من شعره .

(١) من رسالة لأحمد شوقى الى الدكتور صبرى السربونى سنة ١٩٢٣ - انظر الشوقيات المجهولة لأحمد صبرى ج ٢ ص ١٧٥ (١٩٦٢) .

ويعود البارودي من حلوان الى داره (بغيطة العدة) بسباب الخلق في صيف ١٩٠٠ ، فيصبح منتدي الأدياء والشعراء وذوي المكانة ، يأتون فيأتسون اليه ويأتسن بهم ، ويسمتمعون بحديثه ، ويسمتمع الى انشادهم ومناقشاتهم . ويرى في مجالستهم ما ياسو جراحه ، التي أدمت قلبه طوال سنوات النفي العجاف وكان على رأس رواد ندوته اسماعيل صبرن وأحمد شوقي وخلييل مطران وحفنى ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال وحامد خلوصى رحسن حمدي وعبد المحسن الكاظمي ومصطفى صادق الرافعي ، من الشعراء والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا (١) من العلماء . (٢) رعبده الحمولى ومحمد عثمان من أهل الفن . وغيرهم من رجال الفكر والعلم وعشاق الأدب .

وفي هذه الندوة أخذت مدرسة المحافظين في الشعر العربي ترسي قواعدها . تمم ينابيعها الى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر عن أبواب البلاط ، وتطلقه من قيوده الى الفسيح من الأجواء والأغراض .

ويلتقى في الندوة الزعيم بالرواد والاستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون اليه ، فقد كان زعيم النهضة الشعرية التي تحملهم على جناحها فيقرون له بالفضل أن مهد لهم الطريق . فأثقت الشعر من عشرة الأساليب الركيكه . ورد اليه الروح العربية التي تعيش في كياننا وأحاسيسنا وبث فيه الحياة - حياة نفسه وروح عصره وقومه . فحال بين الشعر والسقوط الذي كان ينهى الى دركه ، وقدم للأمة العربية شعرا ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته ونصاعته وبهجة الديباجة فيه . تنبعث منه الروح العربية الخالدة ، وتظهر فيه الشخصية القومية البارزة .

(١) المنار مجلد ٧ حزن : ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

(٢) انظر الشوقيات المجهولة ج ٢ . صفحة ٤٦ .

كان رواد المدرسة ينهلون من شعر البارودي ومنبعه الأصيل قبل أن يعود وبعد أن عاد ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية ، فيسلك كل منهم السبيل الذي تدفعه اليه ملكته واستعداده ، وتهديه اليه بيئته وثقافته ، لكنهم جميعا كانوا يلتقون عند المصدر والمنبع في «مدرسة المحافظين» تلك التي حافظت على تقاليد الشعر العربي في المنحى والأسلوب ، من شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ونصاعة التركيب ومثانة النسيج .

وفي أصيل يوم الاثنين الثاني عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كثيبة تعزف لحنها الجنازى والبارودي يسلم روحه لبارئها ، وودعته وداعها الأخير ، بعد رفقة دامت نصف قرن وخرج مشهده في الثانية بعد ظهر الثلاثاء ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٤ من داره بباب الخلق وأم المصلين الشيخ الامام محمد (١) عبده وجاء الناس من كل حدب وصوب ، يودعون البارودي الوداع الأخير ، ويشيعون جثمانه ، يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفي فضله وجهاده الوطنى وتلاميذه ومريدوه من الشعراء وعلى رأسهم اسماعيل صبرى .

وفي صباح يوم الأربعاء توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والمراتب عربا وفرنجا الى مدفن البارودي بالامام الشافعى ، وتقدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون الى الجدث الطاهر تحية الفناء الى البقاء ، ونبهوا الأصدقاء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكره . والقى اسماعيل صبرى قصيدة عصماء ، ولكنها بالأسف لم تصلنا ولم تنشر فى ديوانه .

(١) المقطم ، المؤيد ، ١٤/١٢/١٩٠٤ .

الخاتمة

لعل الكاتب في هذا البحث ، قد وفق بعض الشيء ، في امانة اللثام ، عن شخصية الشاعر الكبير والقاضي النزيه اسـمـاعـيل صبرى ، وكشف للجيل الحاضر ، بعض ما كاد أن يغلله سستار النسيان ، عن اثاره الأدبية والوطنية والاجتماعية .

والأشعار التي جاءت في هذا الكتاب ، مأخوذة جميعها من ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٨ ، وهذه الديوان لا يشمل جميع ما نظمه الشاعر من شعر ، لأنه لم يكن معنيا بجمع أشعاره وطبعها في حياته ولذلك ضاع الكثير منه . الأمر الذي حجب قدرا كان سيفيدنا في هذه الدراسة وهو الوحيد من أقطاب المدرسة التقليدية للشعر الحديث وهم البارودي وحافظ وشوقي وصبرى ومطران الذي قال الشعر لنفسه ، دون أن تفرضه عليه الظروف . كما كان الشاعر الثاني في هذه المدرسة ، الذي تهيأت له الظروف بحكم ثقافته العالية ، ومكانته الاجتماعية المرموقة ، ليصل الى مركز الوزير بل ليصبح رئيسا للوزراء ولكن وطنيته العالية منعتة أن يهادن الاحتلال البريطاني أو يسير في ركابه . لذلك لم يظفر بشيء منها ؟؟ . .

امتاز شعره في الغزل والوطنية والتصوف ، كما لم يمنعه

مركزه القضائي الكبير من أن يسهم ولو بقدر متواضع في رفع مستوى الأغاني في عصره .

وقد آزر المصلح الاجتماعي الكبير قاسم أمين في دعوته لتحرير المرأة ، والامام الديني الكبير محمد عبده في دعوته الإصلاحية الدينية والاجتماعية .

وتعتبر شخصية الشاعر اسماعيل صبرى من الشخصيات المثالية في العصر الحديث ، لا باعتبار مواهبه الأدبية فحسب بل بانسانيته وامتيازه الخلقى ، فكان نسقا فريدا في الصفاء والوفاء والبروة ، فما كان يطوى صدره على ضغينة ، ولا يحرك لسانه بنقيصة ، ولا يقبض يده عن معروف ، ولا يعقد ضميره على عذر ، فلم تدع له هذه الصفات السامية النادرة عدوا لا في نفسه ولا في الناس فعاش ما عاش وادع البال في سلام الحب وأمان الصداقة ...

ولما عاد محمود سامي البارودي من منفاه بسيلان عام ١٨٩٩ ، كان أول من خف لاستقباله وتهنئته وظل ملازما له حتى مات في ١٢/١٢/١٩٠٤ .

فتح أبهاء قصره في شارع القصر العيني لاستقبال الأدباء والكتاب والشعراء ، الكبار والناشئين ، ينعمون بعطفه ، ويتقيأون ظلال كرمه وحبه وعطفه وكم قضى بصالونه الأدبي من حاجات ، وكم ارقأ من دموع ، وكم جبر من كسور وضمم من جراح ، فلهجت الألسنة بذكره واستفاضت أخباره في كل الأنحاء .

كانت حياته ونشاطه في ميدان القضاء واجتهاداته في ميادين الوطنية والعلاقات الاجتماعية ، وأمجاده الأدبية كلها خالصة لوجه الله والوطن .

المراجع

ديوان اسماعيل صبرى

تأليف أحمد الزين المطبوع عام ١٩٣٨

كتاب الأدب الحديث

للأستاذ عمر الدسوقي

شعراء الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

محمد فريد رمز الاخلاص

لعبد الرحمن الرافعى

حافظ وشوقى

الدكتور طه حسين

ثورة الأدب

محمد حسين هيكل ص ٦٥

أحمد رامي

دكتورة نعمات أحمد فؤاد - ص ٩

شعراء مصر وبيئاتهم

عباس محمود العقاد

عصر اسماعيل ج١

عبد الرحمن الرافعي

عصر اسماعيل ج٢

عبد الرحمن الرافعي

الشعر والفلسفة

مقال حسن لطفى المنفلوطى : مجلة الكتاب عدد يوليو

سنة ١٩٥٠ ص ٥١٣

اتجاهات الشعر العربى

مجلة الكتاب - مجلد ٤ السنة الثانية أكتوبر سنة ١٩٤٧

جريدة المؤيد

مقال على يوسف ١١٦/٩/١٨٩٩

الشوقيات المجهولة

محمد صبرى ج٢ ص ١٧٥ طبع سنة ١٩٦٢

محمد عبده

تاريخ الأستاذ الامام ج١ ص ١٢

مجلة أبولو

عدد سبتمبر سنة ١٩٣٤

احمد شوقى

تأليف د ماهر حسن فهمى

محمود سامى البارودى

د على الحديدى

حافظ ابراهيم

دكتور سامى الدهان - مجموعة اقراء رقم ١٢٠

احمد حسن الزيات

وحى الرسالة ج١

مجلة صلق الاخاء

رئيسها حسن عزت - عدد يوليو سنة ١٩٠٨

مذكراتى فى نصف قرن

أحمد شفيق باشا

مصر للمصريين

بسلیم نقاش

الثورة العراقية

عبد الرحمن الرافعى

المعلوم والمجهول

ولى الدين يكن

ذكري مصطفى كامل الثالثة عشرة

على فهمي كامل المطبوع سنة ١٩٢١

ديوان الشاعر

حافظ ابراهيم

ديوان الشاعر

خليل مطران

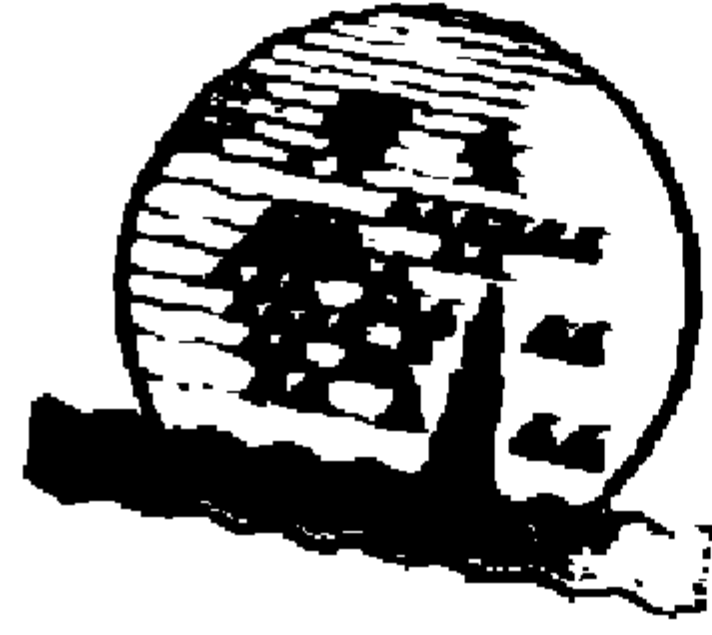
ديوان الشاعر

أحمد شوقي

فهرس

٣	مقدمة
٧	الباب الأول حياة اسماعيل صبرى
٨	الشعر نشأته وتطوره
١٧	بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر
٢٦	الشعر العربى فى العهد الحديث
٣١	حالة الشعر بعد البارودى
٣٤	عصر اسماعيل صبرى
٤٥	تاريخ حياة الشاعر
٦٠	فنه الشعرى
٧٢	أراء النقاد فى الفن الشعرى لاسماعيل صبرى
٧٩	الباب الثانى الشعر الوطنى والسياسى
٨٥	تنديده بالظلم والاستعمار الايطالى

٨٧	• • • • •	اندعوة الى مجد الوطن
٩٢	• • • • •	علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل
١٠٢	• • • • •	تمثال مصطفى كامل
١١١	• • • • •	حادثة دنشواى
١٢١	• • • • •	دعاباته السياسية
١٢٧	• • • • •	الباب الثالث الشعر الفلسفى والصوفى
١٢٨	• • • • •	الشعر الفلسفى
١٣٠	• • • • •	أخلاق الناس
١٣٤	• • • • •	الدواة
١٤٣	• • • • •	الشعر الصوفى
١٤٩	• • • • •	الباب الرابع الغزل عند اسماعيل صبرى
١٦٥	• • • • •	الباب الخامس الشعر الاجتهاعى
١٧٣	• • • • •	شعر المراثى
١٨٤	• • • • •	الصالونات الأدبية فى القرن الماضى
١٩١	• • • • •	المدائح والتنهانى
٢٠٣	• • • • •	تقدير اسماعيل صبرى للمرأة
٢١٣	• • • • •	الباب السادس المتنوعات
٢١٤	• • • • •	شعره الوصفى
٢٣٠	• • • • •	اسماعيل صبرى والبارودى
٢٣٥	• • • • •	الخاتمة
٢٢٧	• • • • •	المراجع



National Organization of the Alexandria Library (COAL)
Beitawi *Beitawi*

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٧٣١٧

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ٠٥٢٤ - ٤

